

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur Et de la Recherche Scientifique

Université de

جامعة غرداية

Faculté des sciences sociales et

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

humaines

Département de Sociologie

قسم علم الاجتماع



دروس في مادة مدارس ومناهج

مقدمة اطلية السنة أولى جذع مشترك علوم اجتماعية
السداسي الثاني

إعداد الأستاذ: أوشان جميلة

الموسم الجامعي 2020/2019

الصفحة	الحجـم الساعي	المحاضرات	أجزاء المطبوعة
--------	------------------	-----------	-------------------

جميع من درستهم، والذين لم أدرسهم، والذين قد أدرسهم أقول

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمَثَالِ أَكْفَاءُ
أَبُوهُمْ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَاءُ
نَفْسٌ كَنَفْسٍ وَأَرْوَاحٌ مُشَاكَلَةٌ
وَأِنَّمَا أُمَّهَاتُ النَّاسِ أَوْعِيَةٌ
وَأَعْظَمُ خُلِقَتْ فِيهَا وَأَعْضَاءُ
مُسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلْأَحْسَابِ آبَاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ أَصْلِهِمْ شَرَفٌ
يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطَّيْنُ وَالْمَاءُ
مَا الْفَضْلُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمْ
عَلَى الْهُدَى لِمَنْ اسْتَهْدَى أَدْلَاءُ
وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ
وَاللرِّجَالِ عَلَى الْأَفْعَالِ أَسْمَاءُ
وَضُدُّ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ
وَالجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ
وَإِنْ أَتَيْتَ بِجُودٍ مِنْ ذَوِي نَسَبٍ
فَإِنَّ نَسَبَنَا جُودٌ وَعَلِيَاءُ
فَفَزُّ بِعِلْمٍ وَلَا تَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا
فَالنَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

علي بن أبي طالب

1	مقدمة	
3	10 دقائق	الدرس التمهيدي
5	1.5 ساعة	النشأة، التاريخ، والرواد
17	1.5 ساعة	القواعد المنهجية والنموذج التصوري
22	1.5 ساعة	مراحل التحليل ونسق التفسير
26		نقد المدرسة الوضعية
28		ملخص عن المدرسة الوضعية
29	مراجع المدرسة الوضعية	
31	1.5 ساعة	النشأة، التاريخ، والرواد
39	1.5 ساعة	القواعد المنهجية والنموذج التصوري
45	1.5 ساعة	مراحل التحليل ونسق التفسير
50		نقد المدرسة الماركسية
52		ملخص عن المدرسة الماركسية
53	مراجع المدرسة الماركسية	
54	1.5 ساعة	النشأة، التاريخ، والرواد
65	1.5 ساعة	القواعد المنهجية والنموذج التصوري
69	1.5 ساعة	مراحل التحليل ونسق التفسير
71		نقد المدرسة البنيوية
73		ملخص عن المدرسة البنيوية
74	مراجع المدرسة البنيوية	
76	1.5 ساعة	النشأة، التاريخ، والرواد
89	1.5 ساعة	القواعد المنهجية والنموذج التصوري
94	1.5 ساعة	مراحل التحليل ونسق التفسير
97		نقد المدرسة الوظيفية
99		ملخص عن المدرسة الوظيفية
100	مراجع المدرسة الوظيفية	
101	1.5 ساعة	النشأة، التاريخ، والرواد
116	1.5 ساعة	القواعد المنهجية والنموذج التصوري
122	1.5 ساعة	مراحل التحليل ونسق التفسير
126		ملخص عن المدرسة الإسلامية
127	مراجع المدرسة الإسلامية	
129	خاتمة	

فهرس المطبوعة

مقدمة

مقياس مدارس ومناهج 2 ينتمي إلى وحدات التعليم المنهجية للسداسي الثاني من الجذع المشترك علوم اجتماعية، وهو مقياس بما احتواه من مادة علمية تتعلق بأهم مدارس العلوم الاجتماعية الأم التي تولدت عنها -سواء امتدادا أو نقدا- مختلف المدارس الأخرى التي سيتناولها الطالب في المراحل القادمة من تعليمه الجامعي، هذا المقياس يحوي كل من المدرسة الوضعية، المدرسة الماركسية، المدرسة البنيوية، المدرسة الوظيفية، والمدرسة الإسلامية، يعتبر هذا المقياس ذا أهمية بالغة لطلبة السنة أولى، فمن خلاله سيتعرف الطالب على المداخل المنهجية المختلفة الكبرى التي رافقت مسيرة العلوم الاجتماعية إلى غاية اللحظة.

المدخل المنهجي هو الرؤية والتصور الفكري الذي يصب فيه الباحث بحثه من أول خطواته إلى نهايته، فقد يختلف باحثان في دراسة نفس الظاهرة بسبب اختلاف مدخلهم المنهجي، وأشهر مثال عن ذلك هو دراسة ظاهرة نشوء الرأسمالية بين كارل ماركس وماكس فيبر، فالأول تناولها من مدخل المنهج المادي فحلها انطلاقا من البنية المادية للمجتمعات مستخدما المنهج الجدلي المادي، في حين درسها فيبر من خلال منهج الفهم الذاتي أو التأويلي منطلقا من البنية الدينية التي كانت تسود أوروبا آنذاك، استعاب الطالب للمداخل المنهجية المختلفة يجعله أكثر قدرة على فهم اختلاف التنظيرات نحو نفس الموضوعات، أو بتعبير آخر استعاب الوحدة في الاختلاف والاختلاف في الوحدة كحالة صحية في العلوم الاجتماعية، تُظهر تنوع التاريخ البشري، والفكر الإنساني، والتجربة الثقافية، والنموذج المعرفي في البحث عن الحقيقة.

هذا المقياس إذن يقدم للطلاب عرضا شاملا عن كل مدرسة فكرية، جزء من المادة يعرض الجانب التاريخي لكل مدرسة يتعلق بنشأتها وتطورها وأهم روادها، والجزء الثاني يعرض التصور المنهجي لكل مدرسة ويتعلق بالقواعد الاسترشادية التي تقوم عليها كل مدرسة، والنموذج التصوري الذي يوجهها، ومراحل التحليل التي ترسم مسارها، ونسق التفسير الذي يظهر نظرتها للظواهر المدروسة.

من هذا المنطلق فإن كل مرجع يتعلق بالنظريات أو المدارس الفكرية السابقة الذكر في العلوم الاجتماعية سيكون ذا فائدة لا جدال فيها للطلاب، وكل مرجع يتعلق بالمداخل المنهجية الكبرى في العلوم الاجتماعية هو ضروري جدا للطلاب، وكل مرجع يقدم نماذج تطبيقية ودراسات ميدانية وفق التصورات والمداخل المنهجية الكبرى سيكون مرجع ننصح الطالب أن لا يفوت قراءته.

نريد أن نشير في الأخير إلى الصعوبات التي يمكن أن يلقاها الطالب في اكتساب هذا المقياس والتي نراها في النقاط التالية:

- ضعف قدرة الطالب على التفكير التجريدي خاصة وأنه قادم من المرحلة الثانوية التي لم يتعود فيها بعد على التعمق في التنظيرات الفكرية المجردة، لذا ننصح طلبتنا بتعويد أنفسهم على القراءة المعمّقة بتركيز عال وصفاء ذهني.

- صعوبة استعاب المادة العلمية في الكتب المتخصصة على طلبة لم يتعودوا بعد على البحث والتقصي المعرفي الذاتي بعيدا عن التلقين، لذا ننصح طلبتنا بالإستعانة بالموسوعات والمعاجم التي تتناول مختلف المفاهيم في حقل العلوم الاجتماعية حتى يكونوا رصيذا معرفيا يساعدهم على فهم ما يقرؤون.

- رغبة الطلبة في المعرفة الاختزالية القائمة على العموميات والملخصات والمختصرات، تقف عائقا في تشكيل رغبة مضادة تقوم على الفكر التحليلي الذي يقف على عمق المفاهيم والتصورات والمقاربات التي هي صلب الفكر العلمي الحقيقي، نقول لطلبتنا أن محاربة عاداتنا السلبية يكون بالتطبع بعادات حسنة ولن يخسر من حاول واجتهد.

الدرس التمهيدي

التعريف بالمقياس:

- إسم المقياس: مدارس ومناهج 2 المتعلق بالسداسي الثاني.

- الفئة المستهدفة: طلبة جذع مشترك علوم اجتماعية.

- ينتمي المقياس إلى وحدة التعليم المنهجية.

- الكفاءات المستهدفة: يستطيع الطالب أن يستوعب كبرى المداخل المنهجية الموجودة على صعيد العلوم الاجتماعية، وهذا يسمح له باكتساب آليات تحليل الظواهر الإنسانية والاجتماعية وفق قواعد منهجية ملائمة انطلاقاً من منظورات فكرية مختلفة، مما يساعده مستقبلاً على تلقي بقية المعارف المنهجية والنظرية بسهولة أكبر، إذ يساعده المقياس على تكوين معرفة تراكمية هامة جداً لباقي مراحل التعليم.

طريقة التقييم: نهاية السداسي يخضع الطالب لامتحان حول الكفاءات المحصلة، إضافة إلى مراقبة مستمرة في الأعمال الموجهة.

عدد المحاضرات: خمسة عشر محاضرة ودرس تمهيدي.

المعارف اللازمة لاكتساب المادة: القدرة على التفكير التجريدي بما فيه القدرة على التحليل والتركيب، إضافة إلى معرفة كافية بمفهوم العلم، والبحث العلمي، والنظرية، والمفاهيم، والمدخل المنهجي، والمنهج، وعلم المناهج...

التعريف بالمطبوعة:

تتكون المطبوعة من خمسة عشر محاضرة ودرس تمهيدي، هذه المحاضرات هي عرض لخمس مدارس فكرية كبرى في العلوم الاجتماعية كما جاء في مقرر الوزارة الوصية، كل مدرسة تم تقسيمها إلى محورين:

1- المحور الأول الذي يشكل محاضرة في كل مدرسة، يعرض نشأة وتاريخ المدرسة مع أهم روادها، وهي مادة يستطيع أن يستوعبها الطالب بسهولة، فلا ضير إن كانت طويلة أحياناً للضرورة وهذا يفيد جداً في الإحاطة بالمدرسة الفكرية جيداً، وتبقى لديه كرصيد معرفي يستزيد منه متى شاء وفي مختلف مراحل التعليم الأخرى.

2- المحور الثاني يتعلق بالتصور المنهجي للمدرسة ولأهميته الكبرى وحتى يتسنى للطلبة استيعابه جيداً قسمناه إلى عنصرين، كل عنصر يشكل محاضرة:

العنصر الأول: يعرض القواعد المنهجية لكل مدرسة ونموذجها التصوري.

العنصر الثاني: يعرض مراحل التحليل ونسق التفسير في كل مدرسة.

هذا كله يغطي 15 حصة بحجم ساعي قدره 22 ساعة و40 دقيقة

حتى لا يتوه الطالب في المراجع المستخدمة في هذه المطبوعة، ولمساعدته في متابعة محتوى المادة إرتأينا أن نفرّد لكل مدرسة مراجعها الخاصة بها ليسهل عليه العودة إليها متى شاء، إضافة إلى أننا أردنا أن نبسّط المحتوى قدر المستطاع فإذا عاد الطالب إلى المرجع تعلم كيف يقرأه ويفهمه مستعينا بالمطبوعة، فيتعلم بذلك كيف يقرأ ويحلل وهو هدف مضاف إلى أهداف المقياس السابقة الذكر.

المدرسة الوضعية

المحور الأول: النشأة التاريخ والرواد

أهداف الدرس المتعلق بالمدرسة الوضعية:

المدرسة الوضعية تعتبر في الفكر الغربي أول منظور يتأسس للعلوم الاجتماعية مع سان سيمون وأوغوست كونت وآخرين، ويعتبر هاذان المفكران مؤسسا علم الاجتماع من منظور الفكر الغربي، هي مولود شرعي لثورة الأنوار كما يسمونها، هذا المولود الذي جاء رافضا لمسار أسلافه من فلسفات تأملية وميتافيزيقية وتفكير لاهوتي، يعتبر عصر الأنوار عتبة ظهور التفكير العلمي القائم على الملاحظة والتجربة وبداية انتصارات العلوم الطبيعية التجريبية، التي أذهلت العقل البشري بكم التغيير وسرعته التي لامست واقع الناس اليومي ناهيك عن مجال الفكر والمعرفة، تلك الشرارة التي انطلقت في القرن التاسع عشر تأبى إلا أن تزيد اشتعالا وتسارعا.

أمام تلك الانتصارات المعرفية للعلوم الطبيعية ظهر تيار فكري بقيادة دافيد هيوم، وفرانسيس بيكون، وجون لوك، وسان سيمون، وأغوست كونت، معتقدين أن ذلك التطور الهائل لتلك العلوم إنما هو راجع لمناهج بحثها، فحذو حذوها ونادوا بفلسفات وعلوم اجتماعية ذات مناهج بحثية على منوال العلوم الطبيعية، إلى الدرجة التي قال فيها أحد رواد هذه المدرسة وهو إميل دوركايم إن الظواهر الاجتماعية يجب أن تدرس كأشياء، فلا فرق بين أن تدرس تفاحة وأن تدرس غارس التفاحة، هذا التيار سعى كما سعت العلوم الطبيعية إلى البحث عن القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتنبؤ بحدوثها، وعلى الرغم من صعوبة ذلك الحلم يبقى للمدرسة الوضعية الفضل في التأسيس لمقولة المنهج العلمي في البحوث الاجتماعية حتى لا تبقى مجرد آراء ذاتية وإيديولوجيات.

تركزت الوضعية بصمتها في مناهج العلوم الاجتماعية إلى حد الآن خاصة مع التصحيحات الكثيرة التي طالتها، وما زالت تطرح مسألة التحدي الصعب الذي خاضته هي بكثير من التصلب الفكري أمام كل من جاء بعدها وهو العلاقة بين الذات والموضوع في العلوم الإنسانية والاجتماعية، كيف ندرس ذواتنا وكأننا موضوعات خارجها مثلما ندرس الأشياء الطبيعية الموجودة خارجنا، استعاب أبجديات هذه المدرسة يفتح أعين الطلبة على بدايات أطروحة التجريب تصورا ومنهجيا في العلوم الإنسانية وكيف ستتطور مع سنواتهم الدراسية القادمة من خلال مقاربات ناقدة ومطورة سواء في علم النفس أو علم الاجتماع.

I/ تعريف الوضعية:

I/1 تعريف الوضع Position لغة:

جاء في القاموس المحيط وضع يضع وضعا وموضوعا ومنه مواضع، وأقرب ما جاء فيه نراه قريبا من التعريف الإصطلاحي قول العرب تواضع القوم على الشيء إتفقوا عليه، وأوضعته في الأمر إذا وافقته فيه على شيء، ووضعت الأشياء فوق بعضها إذا نضدها بعضها على بعض، والمواضعة المناظرة والمراهنة والموافقة في الأمر، وهلم أو اضعك الرأي بمعنى أطلعك على رأيي وتطلعني على رأيك⁽¹⁾، ونقول أيضا وضع الشيء في مكانه بمعنى أثبته في موقعه، ووضع الأمر اختلقه، ووضع العلم اهتدى إلى أصوله وقواعده، والوضع أيضا كون الشيء الحسي والمُعَيَّن، وأيضا المعنى الموضوع للشيء بمعنى الفكرة المجردة الموضوع للشيء⁽²⁾.

2/I تعريف الوضع اصطلاحا:

الوضع مقولة من مقولات أرسطو وتعني الهيئة العارضة للشيء في أجزائه بعضها لبعض من ميلان وانحراف وبالنسبة للمكان من قعود وقيام وغيرها، ونفس المعنى أخذ به ابن سينا، وهو طبيعي طوعي أو غير طبيعي إجباري⁽³⁾.

3/I تعريف الوضعي Positif اصطلاحا:

عند الفيلسوف وعالم الطبيعة الألماني لايبنتز Gottfried Wilhelm Leibniz حقائق العقل قسمان الحقائق المطلقة الأبدية والحقائق الوضعية وهي القوانين التي وضعها الله في الطبيعة والتي لا درك إلا بالتجربة، فالوضعي إذن مرادف للواقعي والتجريبي ومقابل للوهمي والتأملي⁽⁴⁾، والعلم الوضعي هو العلم التجريبي الذي يبحث في الوقائع الحسية وهو مقابل العلم المعياري الذي يبحث في القيم والمعايير.

4/I تعريف الوضعية Positivisme اصطلاحا:

هي فلسفة للعلم ومدخل منهجي ينظر إلى المعرفة كحقائق موجودة خارج الوعي، فهي معرفة علمية تقوم على التجربة الأمبريقية بحيث تعتقد باستخراج القوانين السببية والعلية التي تحكم الظواهر من منطلق أن الحقائق موجودة في عالم الحس والتجربة وليس ما وراء الطبيعة، إمتد تأثيرها إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية فظهرت المدرسة الوضعية كمنهج فكري يسعى إلى تحليل الظواهر الاجتماعية كأشياء موجودة خارج الذات الإنسانية كوقائع موضوعية، والبحث عن القوانين الثابتة التي تحكمها تماما كما هو الأمر مع حقائق العلوم الطبيعية، وأشهر مؤسسيها في العلوم الاجتماعية هو أوغست كونت الذي استخدم مفهوم الفلسفة الوضعية كمقابل للفلسفة الميتافيزيقية والتأملية، فالوضعية بصورة عامة هي كما عرفها معجم العلوم

(1) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة

الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005، ص771-772

(2) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، الجزء الثاني، ص576

(3) نفس المرجع، نفس الصفحة

(4) نفس المرجع، ص577-578

الإنسانية بأنها >>فلسفة تقول إن المعرفة العلمية لا يمكن أن تقوم إلا على الوقائع التجريبية، على الظواهر الخاضعة للمراقبة>> (1)، عموماً هي دراسة الوقائع دراسة علمية عن طريق التجربة الأمبريقية بعيداً عن الذاتية التأملية وبعيداً عن الميتافيزيقا، وفي الدين هي رفض لأي إله ودين سماوي فالدين صناعة بشرية وضعية، وفي السياسة فصل الدين عن الدولة فله ما لله ولقيصر ما لقيصر.

II / نشأة وتطور المدرسة الوضعية:

1/II الإرهاصات الأولى:

المعروف لدى جميع الطلبة أنّ بداية القرن العشرين شهد ثورة علمية ومعرفية كبيرة جداً في مجال العلوم الطبيعية أو ما يُطلق عليها العلوم البحتة من فزياء وكيمياء وبيولوجيا، وصنع المنهج التجريبي الإستقرائي إنتصاراته المذهلة في هذه التخصصات، هذا الوضع إنعكس على بقية العلوم الأخرى كالعلوم الإنسانية والاجتماعية التي رأت في المنهج التجريبي الإستقرائي سر تطور المعرفة فسعت إلى تبنيه بحماسة شديدة، لكن الحقيقة أن المنهج التجريبي رأى إرهاباته الأولى على يد أشهر فيلسوفين من القرن السابع عشر جون لوك (John Locke 1632-1704) وفرنسيس بيكون (Francis Bacon 1561-1626)، وأشهر فيلسوف من القرن الثامن عشر دافيد هيوم (David Hume 1711-1776)، والفيلسوف الوضعي من القرن التاسع عشر الألماني فريدريك شيلنغ (Friedrich Schelling 1775-1854)، والفيلسوف الفرنسي سان سيمون (Saint-Simon 1760-1825).

- فرنسيس بيكون اقترن إسمه بصورة العلم الحديث القائمة على الملاحظة والتجربة من خلال كتابه الأكثر شهرة "الأورغانون الجديد" Novum organum scientiarum والترجمة الحرفية من اللاتينية وجدناها "الأداة العلمية الجديدة" الذي كتبه سنة 1620، تُرجم ترجمات عديدة مختلفة إلى العربية، وقد قال عن فلسفته التجريبية الأمبريقية التي تعنى بالتجربة والمنهج الإستقرائي >>إنه الأسلوب الأوحده الذي يمكن من خلاله التأسيس لفلسفة تطبيقية بالمعنى الحق للكلمة، وسوف يشعر الناس حينها، كما لو أنهم أُيقظوا من سبات عميق>> (2).

- لوك في كتابه "مقال في الفهم البشري" يرى أن عناصر المعرفة البشرية لا توجد في الذهن بشكل فطري فهذا الأخير ورقة بيضاء تملؤه التجربة، التجربة والملاحظة في نظر لوك مهمان في صناعة المعرفة البشرية فهي قادرة على تحويل

(1) جان فرنسوا دورتيه، معجم العلوم الإنسانية، تر: جورج كتورة، ط2، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث "كلمة"-المؤسسة الجامعية للدراسات "مجد"، الإمارات-لبنان، 2011، ص 1124

(2) فرنسيس بيكون، الأورغانون الجديد أو الوسيلة الجديدة لاكتشاف المعرفة، تحرير ليزا جاردن ومايكل سيفرثورن، تر: منذر محمود محمد، ط1، دار الفرقد، سوريا، 2016، ص374

المحسوسات إلى مدركات ذهنية، فالطبيعة وحتى الأخلاق لدى لوك تدرك بالعقل (1)، فهو صاحب المقولة الشهيرة "الفهم دون تجربة أشبح بالحجرة المظلمة" ويعتبره الكثير من الفلاسفة والمفكرين مؤسس الفلسفة التجريبية الإنجليزية إلى جانب بيكون، لكن مع ذلك يؤمن لوك بالمعرفة الحدسية المباشرة والتجربة الباطنية ويعتبرها المعرفة الأكثر يقينية.

- بالنسبة لدافيد هيوم فيلسوف الشك المتأثر كثيرا بجون لوك رفض الفلسفة المثالية رفضا مطلقا ودعا في كتابه تحقيق في الفهم البشري *An Enquiry Concerning Human Understanding* إلى فلسفة تجريبية فهي أكثر يقينية من غيرها، فكل معرفة عند هيوم تتعلق إما بالحدس والتجربة المباشرة... مثل اللون الأبيض ليس أسود والمثلث له ثلاث أضلاع و $2=1+1$ ، وهذه تتضمن الرياضيات وكل ما هو إنساني من أخلاق ودين وسياسة واقتصاد وقيم ومعايير... أو معرفة تتعلق بالتجربة وهذه تتعلق بالطبيعة والفيزياء والكيمياء وعلوم الأحياء... أو معرفة غير ذات جدوى سفسطائية والتي سماها المعرفة الخاوية فهي لا تنتمي إلى المعرفة الأولى ولا الثانية وقسم كبير من الميتافيزيقا ينتمي لهذه المعرفة الخاوية (2)، وعموما العلاقات السببية عند هيوم تتم بالتجربة لا العقل، لكنه يرى أن كل معرفة هي احتمالية تتضمن نسبة من الشك مماثلة لنسبة اليقين، وهذه الفكرة من أحدث الأفكار في عالم فزياء الكم الآن المعروفة بمبدأ الريبة.

- فريدريك شيلنغ يعتبر من أوائل من استخدم مفهوم الوضعية في محاضراته عن "الفلسفة الوضعية" التي ألقاها بجامعة برلين بين 1830 و1837، دافع عن المنهج التجريبي كطريق نحو المعرفة الحقيقية كفلسفة إيجابية بدل الميتافيزيقا كفلسفة سلبية، كتب شيلنغ نقلا عن ماركيز >>الرسالة العظيمة للفلسفة الألمانية ينبغي أن تكون تجاوز الميتافيزيقا ذات النزعة القبلية عن طريق مذهب وضعي يعمل على تحويل الفلسفة، آخر الأمر، إلى علم حقيقي للتجربة<< (3)، تأثر أوغست كونت مؤسس المدرسة الوضعية في علم الاجتماع بشيلنغ واستمد أسس فلسفته منه، لقد عاصر كونت شيلنغ على الرغم من أنه وُلد بعده بثلاثة وعشرون سنة غير أنه توفي بثلاث سنوات بعده.

- سان سيمون مؤسس علم الاجتماع المظلوم كما يرى جان ديفينيو وجوزيف برودون وكارل ماركس ودوركايم، ومع ذلك الكثير من الباحثين يصرون على أن

(1) جون دن، جون لوك، تر: فايقة جرجس حنا، سلسلة مقدمة قصيرة جدا، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2016، ص100.87

(2) دافيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري، تر: محمد محبوب، ط1، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، 2008، ص37.25

(3) هربرت ماركيز، العقل والثورة هيغل ونشأة النظرية الاجتماعية، تر: فؤاد زكريا، دط، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1970، ص312

أوغوست كونت سكرتير سان سيمون هو مؤسس علم الاجتماع، في حين صاحب فكرة الفيزيولوجيا الاجتماعية هو سان سيمون، إذ أراد أن يطبق منهج العلوم الفيزيولوجية على الظواهر الاجتماعية، فيدرس هذا العلم الجديد الوظائف التي يقوم بها الأفراد داخل العضوية الاجتماعية باستعمال الملاحظة العلمية الدقيقة والبحث الأمبريقي، طور كونت فكر سان سيمون، ولويس دي بونالد، وجوزيف دي مستر و المركيز دو كوندورسيه وآخرون سبق لنا ذكرهم وآخرون لم نذكرهم، وسار بها نحو تأسيس المدرسة الوضعية.

لا يفهم الطلبة أن الفلاسفة والمفكرين الذين ذكرناهم هم وحدهم من مهّد الطريق نحو المدرسة الوضعية، هذا كلام جانبا للصواب، لا يمكن أن تتشكّل أية مدرسة فكرية كانت في أي تخصص كان إلا من مجموعة كبيرة من الأفكار لعلماء ومفكرين يرث بعضهم بعضا، ويكمل بعضهم بعضا، فأفكار أية مدرسة هي تراكمية، غير أنه ليس بوسعنا أن نأتي على ذكر الجميع فنكتفي دائما بأكثر المفكرين تأثيرا في تشكّل المدرسة الفكرية.

II/2 ظهور المدرسة الوضعية:

أغلب الباحثين والمفكرين يعزّون الفضل في ظهور الإتجاه الوضعي إلى الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت، الذي نهل من أفكار سابقه وطورها ودفعها نحو نسق فكري واضح المقاصد بغض النظر عن مقدار صدقيتها وخطئها، الوضعية الإبن الشرعي لفلسفة الأنوار، تلك الثورة ضد الميتافيزيقا والتأمل العقلي، ودعوة للتجربة والملاحظة الأمبريقية، ونمذجة العلوم الاجتماعية على منوال العلوم الطبيعية، فالقرن التاسع عشر قرن النهضة والصناعة والأفكار العلمية التي غيرت العالم، في هذه الأجواء ولدت المدرسة الوضعية في ظروفها المناسبة، لكن الوضعية ليست مدرسة كونت الاجتماعية فقط فهي أيضا مدرسة علماء اجتماع آخرون مثل إميل دوركايم، وهربرت سبنسر، وغابريال تارد، والأنثروبولوجي ليفي بريل، ومفكرين في تخصصات أخرى مثل المؤرخ والأديب إرنست رينان، والمؤرخ والفيلسوف هيوليت تين، والفزيولجي كلود برنار، وعالم النفس تيودور ريبو، وعالم الرياضيات هنري بوانكاريه وغيرهم من المفكرين.

II/3 تطور المدرسة الوضعية مع حلقة فيينا أو الوضعية المنطقية:

بعد ان بدأ يخبو ضوء الوضعية الكونتية تحت كم الإنتقادات الهائلة الموجهة لها، ظهرت في القرن العشرين وابتداء من سنة 1923 جماعة وضعية جديدة بالنمسا أسست لانطلاقها الرسمية سنة 1929 تحت قيادة الأب المؤسس الفيلسوف والفزيائي الألماني موريتز شليك Moritz Schlick تحت مسمى الوضعية المنطقية positivisme logique، ويُطلق عليها أيضا التجريبية المنطقية والوضعية الجديدة، عُرفت بجماعة فيينا Cercle de Vienne، ضمّت مجموعة من المفكرين مختلفي التخصصات أشهرهم الفيلسوف وعالم الفزياء والرياضيات النمساوي فليب فرانك Philipp Frank،

والفيلسوف وعالم الرياضيات والفيزياء الألماني رودولف كارناب Rudolf Carnap
والفيلسوف وعالم الاجتماع والإقتصادي النمساوي أوتو نيوراث Otto Neurath،
(1)...

إعتمد هذا الإتجاه على التحقيق والمنطق الرياضي وتحليل اللغة العلمية
المفاهيمية لمعرفة مدى صدقيتها، كانت غاية هذا الإتجاه توحيد العلوم تحت نموذج
مفاهيمي موحّد يعتمد الوضوح، الدقة، والمنطق، جمع بين المنهج الإستقرائي
والإستدلالي، واهتم بتحليل اللغة لأنها ناقل للفكر فاللغة أداة لتصوير العالم في
عقولنا، فكلامنا يتعلق بحقائق الوجود التي يمكن لنا التحقق من صحتها أو عدم
صحتها، وقد قسموا اللغة إلى عبارات تركيبية Synthétique يمكن التحقق منها
تجريبيًا، وعبارات تحليلية analytique ذات معنى منطقي يصح معناها بتعريفها، غير
أنها لم تدم طويلا وانفك عقد الحلقة منتصف القرن العشرين وبدأ بعض مؤسسيها
بالإنقلاب عليها مثل شليك زكارناب ونيوراث بسبب ضعف المنطق الحجاجي
المطورح من طرفها (2).

III / رواد المدرسة الوضعية:

■ أوغست كونت Auguste Comte (1798-1857):

فيلسوف فرنسي، تلميذ سان سيمون وسكرتيره، يعتبر مؤسس المدرسة الوضعية
وعلم الاجتماع بالمفهوم الحديث، من أشهر مؤلفاته "محاضرات في الفلسفة
الاجتماعية" Cours de Philosophie Positive و"خطاب في العقل الوضعي" Discours
sur l'esprit positif وخطاب في مجمل الفلسفة الوضعية Discours sur l'ensemble du
positivisme، كونت وريث عصر الأنوار الذي وصفه إمانويل كانط بعصر الرشد
الفكري، تعتبر فلسفته امتداد منطقي لفلسفة الأنوار التي وقفت في وجه الميتافيزيقا
والتأمل ودعت إلى الفكر العلمي.

خصائص الفلسفة الوضعية:

في الدرس الأول يوضح كونت أربع رؤى أو خصائص أساسية للوضعية التي يحفل
بتأسيسها هي (3):

(1) Jan Sebestik et Antonia Soulez, Le Cercle de Vienne Doctrines et Controverses, éd L'Harmattan, Paris 2001

(2) أنظر السيد تقادي، معيار الصدق والمعنى في العلوم الطبيعية والإنسانية مبدأ التحقيق عند الوضعية
المنطقية، دط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1991

(3) Auguste Comte, Cours de Philosophie Positive, éd Rouen Frères Libraires, Paris, 1830, Tome Premier, Les Préliminaires Généraux et la Philosophie Mathématique, 1^{er} Leçon, p14.55

- تنظر لجميع الظواهر باعتبارها خاضعة لقوانين طبيعية ثابتة، لذا تهتم بالبحث عن الأسباب المولدة للظواهر في شكل قوانين دون البحث في ماهية العلاقة السببية، فالكشف عن القوانين يعني الكشف عن العلاقات المطردة بين الظواهر، أو الإطراد في التغيير.

- إنشاء فزياء اجتماعية (علم اجتماع)، فهناك أربع فئات من الظواهر رئيسية في العلوم الطبيعية، الظواهر الفلكية، الظواهر الفيزيائية، الظواهر الكميائية، الظواهر الفزيولوجية، والظواهر الاجتماعية تندرج مع الظواهر الفزيولوجية، لكن مع تطور العلوم الطبيعية إلى علوم وضعية آن للظواهر الاجتماعية أن تشكّل معرفة علمية خاصة بها لأهميتها وتعقيدها، وهدف الفلسفة الوضعية التأسيس لذلك العلم الذي اعتبره كونت مرحلة اكتمال نسق المعرفة الإنسانية، فعلم الاجتماع هو الثغرة الوحيدة في نظر كونت التي كانت تعاني منها المعرفة فبتأسيسه اكتملت، فالظروف التاريخية حين ذاك الناجمة عن ثورات التحرير كالثورة الفرنسية تعتبر اللحظة التاريخية المناسبة لتأسيس علم يدرس المجتمع ويبحث في أسس انتظامه وتغييره، وفي أسس تشكل المنظومات المجتمعية التي يقوم عليها أي مجمع كالسياسة والتربية والتعليم.

- دراسة الظواهر الاجتماعية على غرار الدراسات التي قام بها عالم النبات المقارن وعالم التشريح هنري ماري دولبلانفيل Henri-Marie De Blanville حيث يتم دراسة الظواهر في حالتين أساسيتين، حالة الستاتيكا Statique تمكنا دراسة عناصر الظواهر في حالتها السكونية واكتشاف قوانين الإنظام، وحالة الديناميكا Dynamique تمكنا من دراسة تطور الظواهر أو دراسة الظواهر في حالتها التعاقبية (الضرورة) وتقدم العقل البشري ولاتشاف قوانين التطور، وشرط الوجود الإنساني هو ذلك الإنسجام بين الحالتين.

- الاهتمام بالجانب الأمبريقي، فالمعرفة التجريبية المطلقة مستحيلة، لذا تساعدنا الملاحظة العقلانية المعمّقة لإبراز الصفات والقوانين العامة للظواهر.

قانون الأحوال الثلاث:

اعتقد كونت أنه اكتشف قانون عام لتطور البشرية والعقل الإنساني، العقل البشري في حالته الديناميكية مرّ بثلاث مراحل:

- المرحلة اللاهوتية État Théologique: يعتقد كونت أنها سادت المجتمعات البيدائية، السلطة السائدة تقوم على النظام اللاهوتي والعسكري، والتفكير السائد هو التفكير اللاهوتي الذي يعزي الظواهر إلى الخرافات والأساطير وإلى قوى خارقة، تماما كما في مرحلة الطفولة حيث تسيطر على عقل الطفل الأساطير والخيال الخرافي والسحر

والعفاريت (1)، وهذه المرحلة بدورها تنقسم إلى عصر الوثنية أو عصر الأصنام Àge de Fétichisme، وعصر تعدد الآلهة Àge du polythéisme وعصر التوحيد Àge du monothéisme، لكن علينا أن نوضح أن المرحلة اللاهوتية لا تعني الدينية بالمفهوم المعروف لدى الطلبة وإنما تعني التفسيرات التي تُعنى بالمطلق الوهمي، وهو وهمي مشخّص في أشكال مختلفة من المظاهر الحسية عن القوى الخارقة كالأصنام وقوى الطبيعة والأشخاص.

- المرحلة الميتافيزيقية État Métaphysique: لا يحدث تطور فجائي من المرحلة السابقة إلى هذه المرحلة، فداخل المرحلة الأولى يحدث تطور تدريجي من الوثنية إلى تعدد الآلهة إلى الوجدانية، المرحلة الميتافيزيقية سادت المجتمعات الحديثة، هذه الفترة عرفت تطور ثوري منهج، وهي مرحلة التفكير المجرد لكنه يبقى مشدود إلى التفسيرات الغيبية وإلى القوى الماوراء طبيعية (2).

- المرحلة الوضعية État Positif: تسود المجتمعات المعاصرة، المجتمعات عالية التخصص، يقوم الفكر في هذه المرحلة على الملاحظة والكشف عن القوانين التي تحكم الظواهر، فكر واضح ممنهج دقيق، يتخلى الفكر عن التفسيرات الخرافية والتفسيرات الغيبية وعن البحث في المطلق ويهتم بمعرفة القوانين التي تحكم الطبيعة والإنسانية (3).

هذا القانون لا يمكن أن يكون قانون استقرائي لتاريخ جميع المجتمعات البشرية، لأن هناك اختلاف بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الشرقية وهناك اختلافات داخلها أيضاً، فهو قانون تصوري تجريدي وليس قانون وضعي، كما أن الحالات الثلاث قد توجد داخل المجتمع الواحد وعند الفرد الواحد.

■ هيربرت سبنسر (1820-1903):

فيلسوف وعالم اجتماع وإحيائي إنجليزي، بقيت عبارته البقاء للأصلح أكثر شهرة منه، حيث نسبت خطأ لدارون وهذا ربما لأنه هو نفسه دارويني متحمس ووضع متمرس، كتب مجموعة من المؤلفات بدأها بكتاب "الستاتيكا الاجتماعية" سنة 1850 ولأنه متأثر بتطور داروين ومعتقد بها كتب عن التطور في الظواهر الاجتماعية كما في الأخلاق والقيم وعلم النفس، مبدأ التطور الذي سلكه طريق تفكير

(1) Ibid, Tome Cinquième, éd Bachelier, Imprimeur-Libraire, Paris, 1841, 52^e Leçon (considérations générales sur le premier état théologique de l'humanité: âge du fétichisme).

(2) Ibid, 55^e Leçon (appréciation générale de l'état métaphysique des sociétés modernes: époque critique, ou âge de transition révolutionnaire).

(3) Ibid, Tome Sixième, éd Bachelier, Imprimeur-Libraire, Paris, 1842, 56^e Leçon (appréciation générale du développement fondamentale propre aux divers éléments essentiels de l'état positif de l'humanité: âge de spécialité, ou époque provisoire).

ظهر بوضوح في أضخم كتبه "مبادئ علم الاجتماع" Principes de sociologie الذي ظهر في ثلاث مجلدات بين 1876 و1896 والذي ذكر فيه شرط وجود مجتمع وهو الجوار والتعاون فالجوار وحده لا ينفع لتصبح الجماعة مجتمع مالم يتشكل بينهم تعاون سواء كان تعاون تلقائي وعفوي أو كان مقصود ومدبر، غير أن أشهر كتبه هو "المبادئ الأولى" Les premiers principes ظهر سنة 1862 وهو الذي اعتمدنا عليه في قراءة فكر سبنسر الوضعي.

سبنسر تطوري متأثر بتشارلز داروين، والطرح التطوري هو طرح وضعي يضع المعرفة العلمية التي تقوم على مبدأ القوانين الحتمية مقابل المعرفة غير العلمية التي تقوم على الدين والمعرفة الميتافيزيقية، فقد قسم سبنسر كتابه المبادئ الأولى إلى قسمين القسم الأول سماه L'Inconnaissable غير القابل للمعرفة وهي كل ما يتعلق بالدين والمعرفة التي تبحث عن الحقائق المطلقة، فالعلم نسبي واحتمالي وهذه المعارف مستغرقة في الجواهر والمطلقات والغيبيات التي تتجاوز قدرة العقل البشري، القسم الثاني سماه Le Connaissable القابل للمعرفة ويؤكد فيه سبنسر ضرورة التفرقة بين المعرفة الذاتية الصادرة عن الشعور والمعرفة الموضوعية الواقعة خارج الشعور أو خارج الذات، فالقابل للمعرفة هي الحقائق الخارجية وكلها ترجع إلى مفهوم المادة والحركة والقوة التي هي أساس تطور الموجودات والحياة ككل، لقد بحث سبنسر عن قانون كوني يفسر تطور الوجود ويقول في ذلك >> لقد رأينا أن القانون المنشود هو إعادة التوزيع المستمر للمادة والحركة، والتغيرات التي تحدث في كل مكان منذ ذلك التغير البطيء في بنية نظامنا النجمي إلى أن تشكل تحللا كمائيا هي تغيرات في الوضعيات المتعلقة بالأجزاء المتضمنة بالضرورة أنه مع كل تنظيم وترتيب جديد للمادة يوجد ترتيب وتنظيم جديد للحركة >> (1).

وفي كتابه مبادئ علم الاجتماع المترجم إلى الفرنسية في أربعة أجزاء قدم الكثير من المماثلات بين العضوية الحية والعضوية المجتمعية بالأخص في الجزء الثاني، أظهر المبادئ التي تقوم عليها حياة المتعضية لتستمر وبين المبادئ التي يقوم عليها الاجتماع البشري ليستمر، نفس المماثلة قام بها في كتابه مدخل إلى علم الاجتماع Introduction à la science sociale حيث شرح متطلبات المتعضية البشرية وشروط وجودها كمتعضية حية تماما مثلها مثل غيرها من الكائنات الحية، ثم شروط وجودها وتطورها الاجتماعي الجانب الطبيعي منه والجانب المكتسب وليس فقط في شقها الفردي وإنما أيضا حياة الجماعات والمجتمعات، بحث سبنسر في قوانين تطور المجتمعات على غرار تطور الكائنات الأخرى وتطور الحياة من حياة بدائية إلى غاية الحياة المعقدة التي نعيشها، وطرح مجموعة من المشاكل والتحديات التي

(1) Herbert Spencer, Les Premières Principes, tr : M.E.Cazelles, 7^{ème} éd, éd Félix Alcan, Paris, 1894, p484

تواجه القوانين في علم الاجتماع مثل مشكلة الباحث في الظاهرة الاجتماعية هو جزء منها ويعيش ضمنها، مشكل التعصب أيا كان نوعه، مشكل الذاتية، مشكل الأحكام المسبقة خاصة الدينية منها... ومع ذلك هدف سبنسر كان البحث في قوانين الطبيعة البشرية معتبرا أن البشر تحكمهم طبيعة واحدة، قوانين العقل وقوان الحياة ودين للبشرية طبيعي (1).

قانون التطور الإستقرائي كما سماه والذي وضعه سبنسر والذي يصدق في نظره أن يكون قانون كوني يصدق على جميع الظواهر يمكن اختصاره في الجملة التالية: التطور هو اندماج تدريجي تصاعدي للمادة وفقدان أو تبديد للطاقة المصاحبة (2)، بمعنى تبديد الطاقة=اندماج المادة، ويترتب عن هذا قوانين جزئية نجملها في الجملة التالية: كل تطور هو تحول من التجانس إلى التنوع، من البسيط إلى المعقد، من الشواش إلى الإنتظام، من اللاتساق إلى التساق من غير المحدد إلى المحدد (3)، تظهر هذه القواعد العامة في الكون وفي الحضارة الإنسانية، لدراسة تطور المجتمعات والحياة الإنسانية دعى سبنسر إلى تنويع المناهج لدراسة الظواهر الاجتماعية لكنه ركز على المنهج المقارن كأداة لكشف مسار التطور وتفسيره.

■ إميل دوركايم (1858-1917):

فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، يعتبر مؤسس علم الاجتماع الحديث وعلم اجتماع التربية، يعتبره الكثيرون مؤسس المدرسة الوظيفية لكنه أيضا من أهم رواد المدرسة الوضعية، ولا عجب في ذلك فالوظيفية تعتبر امتداد للوضعية كما سبق القول، أهم مؤلف له ذا مقاربة وضعية هو "قواعد المنهج" Les Règles de la Méthode Sociologique إذ يدرس الظواهر الاجتماعية كأشياء على منوال العلوم الطبيعية بعيدا عن التأمل الذاتي والفلسفي والميتافيزيقي، يدعو دوركايم في هذا الكتاب إلى تبني مناهج العلوم الطبيعية من ملاحظة الظواهر الخارجية وتعريفها تعريفا جامعا مانعا دقيقا حتى لا تختلط بغيرها من الظواهر، والركون إلى التجربة والمقارنات العلمية واكتشاف العلاقات السببية، والإستعانة بعلم الإحصاء لاستخلاص القوانين والقواعد التي تحكم الظواهر.

شيئية الظاهرة الاجتماعية:

إشتهر دوركايم بفكرة شيئية الظاهرة الاجتماعية، بمعنى أن دوركايم ينظر ويدرس الظاهرة الاجتماعية كما تُدرس الأشياء المادية الأخرى، فالظاهرة الاجتماعية موجودة من ذلك المنطلق خارج الذات العارفة تفرض نفسها علينا من الخارج بوجودها الواقعي الموضوعي، فاللغة والقيم والمعايير والثقافة والأسرة

(1) Herbert Spencer, Introduction a la science sociale, 3^{ème} éd, éd Félix Alcan, Paris, 1903

(2) Herbert Spencer, Les Premières Principes, p276

(3) Ibid, p 322.327

والأنظمة... موجودة قبل ميلاد الأفراد، يأتي الأفراد إلى الحياة سجلات بيضاء والمجتمع هو الذي يملؤها بقوته الأمرة القاهرة، ومن هنا يخلص دور كايم إلى قاعدة شيئية الظاهرة الاجتماعية <<إذا كانت الظاهرة الاجتماعية موجودة قبل الفرد فهي إذن موجودة خارجه>> (1)، شرط أن تكون هذه الظواهر ضمن مساحة علم الاجتماع فلا تختلط بغيرها من الظواهر كالظواهر النفسية والبيولوجية وغيرها. فخصائص الظاهرة الاجتماعية كما وضعها دور كايم التي تفي بشيئيتها هي أنها:

- قهرية، سواء بوجود عقوبات يقررها القانون، أو بمقاومة أي تمرد فردي عليها.
- إلزامية، فهي ملزمة لجميع أفراد المجتمع وليست اختيارية فهي إذن أمر.
- عامة، مشتركة بين جميع أفراد المجتمع أو الغالبية منهم، فهي توجد في أجزاء المجتمع وفي كليته، تتصف بالتكرار والإضطراد.
- لها وجود موضوعي واقعي، فهي منفصلة عن تجسيدات الفردية، موجودة خارج الأفراد ومستقلة عن الصور الفردية.

قواعد ملاحظة الظواهر الاجتماعية:

وضع دور كايم قاعدة رئيسية لدراسة الظاهرة الاجتماعية وهي:

دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء *Considérer les Faits sociaux Comme des choses* وهو ما يقع تحت الملاحظة، فدراسة الظواهر كأشياء يعني التعامل معها كمعطيات، وملاحظة الظاهرة في ذاتها منفصلة عن الذات العارفة، بمعنى دراستها كأشياء خارجية، فلا يمكن دراستها بتحليل المعاني ولا بالإستبطان، وإنما بعلم الإحصاء، ومن خلال القوانين الناظمة للحياة الاجتماعية، والآثار التاريخية، والبحث عن أسبابها، فقانون السببية كما يصدق في العلوم الطبيعية يصدق في العلوم الاجتماعية (2).

لهذه القاعدة الرئيسية ثلاث قواعد متممة هي (3):

- 1- رفض الأفكار المسبقة والآراء الشائعة والمبتذلة والتحرر منها، والشك المنهجي الديكارتي هو أحد أشكال تطبيق هذه القاعدة.
- 2- تعريف الظاهرة المدروسة التي يريد الباحث تفسيرها، وتعريفها لا يكون من خلال تصورات عقلية تجريدية وإنما من خلال الخواص المشتركة للظاهرة الملاحظة مباشرة.
- 3- عدم استخدام المدركات الحسية ذات الطابع الشخصي والإعتماد على المدركات الحسية ذات الطابع الموضوعي، بمعنى أن الباحث يقوم بمراقبة الذات للوصول إلى الحياد القيمي.

(1) Émile Durkheim, *Les Règles de la Méthode Sociologique*, éd Félix Alcan, Paris, 1895, p6

(2) Ibid, p20.39

(3) Ibid, p40.58

دوركاييم في كتابه الإنتحار طبق منهجه هذا حيث استعان بالإحصاء وتجميع المعطيات الضرورية لدراسة تلك الظاهرة، كما اعتمد على مجموعة من المقارنات المتنوعة حسب النوع، والدين، والجغرافيا، وقام بتحليل المعطيات وتفسيرها واستخلاص النتائج في شكل قوانين ناظمة لعلاقة الإنتحار ببعض الظواهر الاجتماعية مثل قانونه العام عن الإنتحار كلما قلّ التماسك الاجتماعي إرتفعت معدلات الإنتحار، والعكس صحيح، وهو في حقيقة الأمر ليس قانون سببي وإنما قانون وظيفي يقوم على تلازم وقوع ظاهرتين، تتم صياغته كالتالي أينما وجد ضعف في التماسك الاجتماعي وجدت نسب مرتفعة من الإنتحار، فهما متلازمان في الظهور لكن لايعني أن الإنتحار سببه المحدد هو ضعف التماسك الأسري (يوجد شرح لاحق)، وهذا كون الظاهرة الاجتماعية تتظافر عدة عوامل في وجودها.

المدرسة الوضعية

المحور الثاني: التصور المنهجي للمدرسة

العنصر الأول: القواعد المنهجية والنموذج التصوري

I/ القواعد المنهجية الاسترشادية للمدرسة الوضعية:

المدرسة الوضعية كما سبق وأن قلنا هي مدرسة سعت إلى دراسة الظواهر الاجتماعية على منهج العلوم الطبيعية بمحاكاة مناهجها وبعض أدواتها، وأحيانا اللجوء للمائلة العضوية كما فعل سبنسر، فماهي إذن القواعد المنهجية الوضعية، جاك هرمان حصرها في الخطوات التالية:

I/1- الملاحظة والقياس: الوضعية كما سبق القول تنظر إلى الظواهر الاجتماعية كأشياء منفصلة عن الذات العارفة بالمفهوم الدوركايمي، وكوقائع حقيقية ملاحظة مباشرة بالمفهوم الكونتي، وكوظائف وعلاقات بالمفهوم السبنسري، وهي بكل هذه المفاهيم ظواهر ذات وجود موضوعي يمكن ملاحظتها ووصفها وصفا دقيقا، وقياسها باستخدام الإستقراء والإحصاء وجمع المعطيات بشتى التقنيات الممكنة كالمقابلة والإستبانة وتحليل المحتوى وبناء المقاييس ...

I/2- التجربة: التجريب في العلوم الإنسانية والاجتماعية عموما لا يمكن أن يتم على منوال العلوم الدقيقة حيث نعزل الظواهر داخل المخبر لتحليلها ودراستها، الإنسان أكثر تعقيدا من الشيء الدوركايمي فهو فاعل يملك الوعي والإرادة ويعطي معنى لأفعاله، تؤثر فيه الخبرة والتنشئة، وهو الملاحظ وموضوع الملاحظة في نفس الوقت، لذا التجربة في العلوم الاجتماعية في عمومها تقوم على المبادئ التالية:

✓ تحديد العامل المؤثر أو الخاصية المؤثرة ويطلق عليه المتغير المستقل، والمتغير الذي يتلقى فعل التأثير أو حاصل الأثر يطلق عليه المتغير التابع، مثل السؤال البحثي التالي هل تؤثر الضوضاء على التركيز، فالضوضاء العامل المؤثر فهو المتغير المستقل ولنرمز له بالرمز س، التركيز حاصل الأثر فهو المتغير التابع ولنرمز له بالرمز ع.

✓ إذا كانت هناك علاقة بين المتغير المستقل والمتغير التابع فهذا يعني أن كل تغير يحدث في المتغير المستقل يؤدي إلى تغير في المتغير التابع، يمكن كتابة هذه العلاقة رياضيا بالدالة البسيطة تا(س)=ع فكل تغير في س يؤدي إلى تغير في ع.

✓ في جميع العلوم على اختلافها بما فيها العلوم الدقيقة دائما يوجد عوامل دخيلة قد تؤثر في صفاء التجربة، يجب أن نقوم بضبطها وإلا كانت جميع النتائج كاذبة، ضبطها يعني التحكم فيها بحيث لا نتركها تؤثر في العلاقة بين المتغير المستقل والتابع وبالتالي لا نعرف حقيقة النتائج المتحصل عليها هل تعود فعلا إلى تأثير المتغير المستقل أم إلى تأثير المتغيرات الدخيلة (سنشرح بالمثل السابق لاحقا).

✓ نحتاج في المنهج التجريبي إلى مجموعتين مستقلتين (هناك طرق متنوعة لاختيار المجموعتين) نختارهما عشوائياً، مجموعة ضابطة ومجموعة تجريبية ونضعهما تحت نفس الشروط والظروف، نجري إختبار قبلي (قبل التجربة) عليهما الإثنتين يتعلق بالمتغير التابع، واختبارنا في المثال السابق سيكون عن التركيز لتتأكد أنه لا توجد فروقات بين المجموعتين قبل إجراء التجربة، ندخل على المجموعة التجريبية المتغير المستقل الذي هو الضوضاء أي نعرض المجموعة التجريبية إلى فعل الضوضاء (التجربة سهلة جدا) في حين لا نفعل ذلك مع المجموعة الضابطة، ثم نجري إختبار بعدي (بعد التجربة) نقيس فيها مستوى التركيز عند المجموعتين ونقارن النتائج المتحصل عليها قبل التجربة وبعد التجربة ونحللها، فإذا وجدنا أن المجموعة التجريبية قد انخفض لديها مستوى التركيز مقارنة بالمجموعة الضابطة قلنا أن الضوضاء عامل حيوي في خفض القدرة على التركيز.

✓ نعود إلى المتغيرات الدخيلة التي قد تؤثر في التجربة إذا لم نتحكم فيها فهي ليست ضمن متغيرات البحث، بعضها يتعلق بمفردات عينة البحث (المبحوثين) وبعضها يتعلق بإجراءات التجربة، وبعضها يتعلق بعوامل خارجية، في المثال السابق يجب أن نتفادى أي متغير آخر قد يؤثر على التركيز، وهذا نكتشفه من الدراسات والبحوث السابقة التي أجريت على مسألة التركيز والتي تعطينا رصيد معرفي نظري أمبريقي عن العوامل التي تؤدي إلى عدم التركيز، نكتشفه أيضا بالخبرة والفتنة، فيما يتعلق بالعوامل الدخيلة المتعلقة بمفردات عينة البحث قد تكون حالات يعانون من مشكل كثرة الحركة فقد ثبت أنها تخفض نسبة التركيز، القلق، الإكتئاب، قلة النوم، تعاطي مواد منشطة أو مثبطة، التعب، المرض... متغيرات تتعلق بإجراءات التجربة مثل التوقيت الذي نجري فيه التجربة يكون نفسه لكلا المجموعتين، المكان الذي نجري فيه التجربة يكون نفسه أيضا، الوسائل التي نستخدمها في التجربة تكون نفسها.... عوامل خارجية مثل الجوانب الفيزيائية الأخرى التي قد تؤثر على التركيز مثل الإضاءة، الحرارة، البرودة... يجب أن نتحكم في جميع هذه العوامل حتى لا تؤثر في صفاء التجربة وصدقيتها، في حالة لم يقدر الباحث على التحكم فيها بعزلها أو قياسها فعليه أن يبني تفسيراته أخذا بعين الإعتبار هذه العوامل أثناء تحليله لنتائج الدراسة.

✓ يوجد أيضا متغيرات وسيطة وهي تشبه إلى حد كبير المتغيرات الدخيلة لأنها معدلة لأثر المتغير المستقل على المتغير التابع، غير أنها تقع تحت إرادة الباحث وتحكمه، فهو يقصد دراستها لأنه يفترض احتمال وساطتها بين المتغير المستقل والتابع، بمعنى أن الباحث يرى احتمال أنها تساعد المتغير المستقل في التأثير على المتغير التابع ويستطيع قياسها، في مثالنا السابق متغير السن

(العمر) نملك من خلال مانعرف عن أثر فعل الزمن في الفزيولوجية البشرية ما يجعلنا نعتبره متغيرا وسيطا إذ يمكننا أن نجري مقارنة حسب المتغير المستقل إضافة إلى المتغير الوسيط، فقد نصل إلى نتائج تظهر أن الضوضاء تؤثر على القدرة على التركيز لكنها تؤثر على كبار السن أكثر من الشباب، يوجد مثال جميل جدا ذكره "أليكس إنكلز" عن المتغير الوسيط ففي دراسة لـ "جورج زيبف" عن حركة السكان من منطقة لأخرى، ومن خلال مقارنة منهجية وضعية فسر الظاهرة من خلال قانون طبيعي سماه مبدأ اختزال الجهد، وفق هذا القانون فإن عدد السكان الذين ينتقلون من منطقة لأخرى أو من مدينة لأخرى أو من دولة لأخرى يرتبط بالمسافة التي تفصل بينهما، جاء بعده "ستوفر" وأدخل متغيرا وسيطا في تفسير الظاهرة سماه الفرص الوسيطة، فوجد أن حركة السكان تتأثر بالفرص المتاحة لهم أثناء حركتهم خلال التنقل، فهذه الفرص تغري المهاجر وتمنعه من الإستمرار في حركته ليستقر أين يجد فرصته قبل أن يكمل مسار حركته، كما اقترح هذا الباحث على الذين يريدون دراسة ظاهرة الهجرة متغير وسيط آخر وهو تكاليف النقل⁽¹⁾.

3/I- السببية التلازمية: يقول الكثير من الطلبة والباحثين يوجد في العلوم الدقيقة سببية قانونية لأنها علوم دقيقة، غير أن اطلاقنا على الجديد في فزياء الكم يؤكد لنا أن الأمر أصبح مشكوك فيه كثيرا، فالأمور لم تعد حتمية كما كانت مع نيوتن وأصبحت أكثر تعقيدا من نسبية أنشتاين، لكن تجاوزا حتى لا نخوض في علم فزياء الكم الذي كسر أغلب اليقينييات التي بُرِجت أذهاننا عليها، نعطي مثال عن قانون سببي مازال صامدا إلى الآن أن ارتفاع الحرارة يؤدي إلى تمدد المعادن، هذا قانون سببي في أعلى أشكاله الظاهرة (س) سبب حدوث الظاهرة (ع)، هذه الشاكلة من القوانين نشك تماما في إمكانية وجودها في العلوم الإنسانية والاجتماعية، والوضعية مدرسة سعت نحو حلم قانونية الظواهر الاجتماعية أو السببية الحتمية لكن الأمر لم يعد كذلك، حاليا أصبح الحديث عن العلاقات التلازمية والمقصود به تلازمية وقوع ظاهرتين معاً، بمعنى أنه لا يمكننا أن نقول أن س تؤثر في ع ولكن نقول إنهما متلازمان في الظهور.

يعرض "جاك هرمان" مثال مهم عن الأسباب التلازمية، فلو افترضنا أن هناك فئة من المجتمعات (ج) ذات نظام سياسي شمولي (ش) فإن هناك احتمال معين ع(ص) أن يرتبط ذلك الوضع في ذات الوقت بخاصية أخرى هي ضعف الاقتصاد

(1) أليكس إنكلز، مقدمة في علم الاجتماع، تر: محمد الجوهري وآخرون، ط6، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص 94.93

(ق) (1)، يطلق جاك هرمان على السببية التلازمية إسم السببية العامة، تكرر هذه العلاقة واضطرابها هو الذي يجعلنا نقول حيثما وُجدت الظاهرة (ق) توجد الظاهرة (ش)، وهذا هو التلازم في الوقوع، في العلوم الاجتماعية قد ينقلب المتغير المستقل إلى تابع والمتغير التابع إلى مستقل، فقد يكون الطلاق سبب للتفكك الأسري، وقد يكون التفكك الأسري الذي ينتج عن عوامل أخرى كالبطالة أو الفقر...سبب للطلاق، لذا يصعب في العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديث عن علاقات سببية قانونية كما في العلوم الطبيعية.

4/I- المقارنة المتزامنة (synchronique) والمتعاقبة (diachronique): قلنا أنه من الصعب الحديث عن القوانين السببية ومن الصعب أيضا الحديث عن التجربة المخبرية كما في العلوم الطبيعية، فالموضوع في العلوم الاجتماعية جد معقد ومتفرع، لذا أصبح الباحثون الوضعانيون يلجأون إلى منهج المقارنة الذي سماه دوركايم بالمنهج شبه التجريبي، حيث يقومون بمقارنات متعددة العوامل والمتغيرات متزامنة، بمعنى تحدث في فترة زمنية محددة، أو متعاقبة (عبر مراحل زمنية مختلفة)، لاستخراج العلاقات الممكنة بين الظواهر، مثلا مقارنة بين المجتمعات، مقارنة داخل المجتمع الواحد، أو بين المجتمع البشري والمجتمع الحيواني، المقارنة بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة البيولوجية، المقارنة بين الظاهرة في الماضي والحاضر...

5/I- استخدام المنهج التاريخي: بالعودة نحو الماضي والبحث ضمنه عن المعطيات التي تسمح لنا بتفسير مسارات تطور المجتمعات البشرية، وذلك ما لجأ إليه كونت في حقيقة الأمر فيما يخص قانون الأحوال الثلاث، حيث لجأ إلى تحليل تاريخ المجتمعات بإجراء مجموعة من المقارنات بين بعض المجتمعات عبر أحداثها التاريخية بين الماضي والحاضر، طرق التفكير السائدة، المعارف المسيطرة، نظام الحكم السياسي، أشكال الممارسات الدينية...

II / النموذج التصوري للمدرسة الوضعية:

مجموعة التصورات التي تقوم عليها الوضعية سبق وأن عرضناها من خلال الرواد لكن لا بأس في إعادة عرضها في نقاط كالتالي:
- الظواهر الاجتماعية وقائع موضوعية ملموسة، موجودة خارج الذات العارفة ولذا يجب أن تدرس كأشياء.

- بما أن الظواهر الاجتماعية وقائع موضوعية فمنهج العلوم الطبيعية أو الدقيقة منهج صالح لها، الوضعية مع توحيد العلوم تحت منهج علمي واحد ووحد هو منهج العلوم

(1) جاك هرمان، خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية، تر: العياشي عنصر، ط1، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2010، ص34.35

الطبيعية (يدخل تحت هذه القبة كل العلوم البحتة)، فلا فرق بين الإنسان والحيوان والأشياء والظواهر الكونية.

- الظواهر الاجتماعية وقائع تخضع لمبدأ السببية وهذا يجعلها ظواهر حتمية تسير وفق قوانين ضابطة، على الباحث إكتشافها.

- المجتمع عند الوضعية له وجود طبيعي، فهو موجود ضمن طبيعة الحياة نفسها بعفوية وتلقائية لم يتم تشكيله أو إيجاده بقرارات وقوانين وعقود، وهو ذا طبيعه بيولوجية يماثل الكائن الحي (المتعضية)، من حيث البناء فهو يتكون من مجموعة أنظمة وأجزاء وعناصر تتميز عن بعضها، من حيث الوظيفة فإن جميع الأجزاء تتكامل وتتساند لتحقيق الوجود المجتمعي في كليته.

- يحكم المجتمع من حيث السكون والحركة ما يحكم الكون والحياة من تطور، والمرحلة الوضعية هي أعلى المراحل في حياة البشرية، هي مرحلة سلطة المعرفة الوضعية على غيرها من المعارف الأخرى كالفلسفة التأملية والميتافيزيقا والمعرفة الدينية.

- المجتمع عند الوضعانيين يتطور في مسار خطي، أي أنه يتطور ولا يتغير فطبيعة المجتمع وطبيعة أبنيته وتنظيماته تبقى كما هي على طبيعتها رغم تطورها، فطبيعة الأسرة هي هي (زوجين وأبناء وما يتفرع عن ذلك) رغم تطور الأسرة، وطبيعة النظام السياسي هو هو (سلطة وقهوة قاهرة) رغم تطور الأنظمة السياسية وهكذا... وهذا ما يتيح للوضعانيين الحديث عن قوانين عامة تحكم تطور المجتمعات، فالتطور لا يغير الطبيعة البشرية وإنما يخرج قواها الكامنة إلى حيز الوجود عبر الزمن وفق قوانين هي للاكتشاف، واكتشاف القوانين يتيح للباحث إمكانية التنبؤ بالظواهر.

- كلما زاد تعقيد الظواهر كلما احتجنا إلى تنويع أساليب البحث ووتنوع التقنيات المنهجية لدراستها كاستعمال علم الإحصاء.

- جميع الظواهر تخضع لقوانين ثابتة تحكم مسار حركتها وتطورها، وهذا يعني رفض مبدأ الغائية في الظواهر عموماً، فالظواهر لا تدفعها غايات وإنما تحكمها قوانين (هذا المبدأ رفض صريح لفكرة الإلاه في الفلسفة الوضعية)

المدرسة الوضعية المحور الثاني: التصور المنهجي للمدرسة العنصر الثاني: مراحل التحليل ونسق التفسير

I / مراحل التحليل في المدرسة الوضعية:

- تتبع الوضعية المنهج التجريبي ومراحل التحليل وفق هذا المنهج هي كالتالي:
- تحديد مشكلة البحث وبنائها بحيث يكون المتغير المستقل والمتغير التابع واضحين ومحددتين بدقة، والمشكلة هي الأسئلة البحثية حول الموضوع المدروس.
 - صياغة فروض بحثية واضحة أيضا ومحددة قد تكون في شكل علاقات أو قوانين كمقترح إجابات أولية على الأسئلة البحثية، تختبر هذه الفروض لإثبات صحتها أو خطئها.
 - تحديد مجتمع البحث المعني بالدراسة إما تجري التجربة على المجتمع كله إذا كان في مقدورنا ذلك وهذا يسمى استقراء علمي تام، أو نقوم باختيار عينة ممثلة عنه لصعوبة إجراء الدراسة على مجتمع البحث كله وهذا يسمى استقراء علمي ناقص.
 - إختبار الفروض، والإختبار في العلوم الاجتماعية حسب المقاربة الوضعية إما أن يكون عن طريق التجربة والقياس وقد سبق شرح ذلك، أو عن طريق المقارنة المتعددة العوامل وقد سبق شرح ذلك، كما قد تكون بجمع المعطيات عن طريق الملاحظة وطرق أخرى كالإستبيان أو المقابلة أو تحليل المحتوى، أو تحليل البيانات الكمية الموجودة حول الظاهرة.
 - نقوم بتحليل المعطيات التي تمّ جمعها ونقوم بتبويبها وتصنيفها واكتشاف الانتظامات الموجودة فيها، وهنا يمكن استخدام علم الإحصاء كما فعل دوركايم في ظاهرة الإنتحار.
 - إستقراء المعطيات وإستخراج النتائج وتفسيرها بتفسير أسباب الظاهرة المد، وتأكيد الفروض أو رفضها.
 - إستكشاف القوانين التي تحكم تلك الظاهرة مثلما فعل دوركايم في تفسير الإنتحار أو كونت في تفسير تطور المجتمعات، ومنه تطوير النظريات العلمية.

II / نسق التفسير لجاك هرمان (بتصرف كبير):

نسق التفسير الوضعي يتألف من مجموعة عناصر أساسية ذكرها جاك هيرمان (1) كالتالي:

- الشمولية الإحصائية وإمكانية التنبؤ: إكتشاف القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية هو غاية التفسير الوضعي، وقانونية الظاهرة تسمح بإمكانية التنبؤ بها مستقبلا، وهذا ما يعرف بالوضعية السببية أو العلية التي تبحث في علل الظواهر، أساس العلاقة السببية وجودها في فضاء زمني، حيث تشير تلك العلاقة إلى ارتباط ظاهرتين على محور الزمن بحيث تسبق إحدهما الأخرى وتؤدي إلى ظهورها، مثل قانون تمدد المعادن بالحرارة السابق الذكر لابد أن يرتبط بالتمدد بارتفاع درجة الحرارة التي تحدث في زمن يسبق حدوث الأثر وإلا لن يحدث الأثر أبدا وهو مبدأ بديهي.

- كما يلجأ التفسير الوضعي إلى استقرار المعطيات الإحصائية، وهذه المعطيات الإحصائية يتوقف جمعها على الموضوع المدروس إما أن تكون معطيات إحصائية تتعلق بماضي الظاهرة (بتاريخها) أو بحاضرها أو بالآتين معا، ويطلق عليها الوضعية الحسية وهذا لأن القانون الإحصائي ذا طبيعة حسية تعتمد على شروط ملموسة لتطبيقها على الظواهر الاجتماعية أو غيرها، مثل ثبات الإنتظامات بمعنى تكرار حدوث الشيء كلما أعدنا التجربة يعني ثباته، أو ثبات معدل تكراراته داخل التجربة نفسها، ومبدأ الإضطراب أو الإطراد L' uniformité والذي يعني أن معرفتنا بجزء من الظاهرة يمكننا من تعميمها على كل الظواهر المشابهة لأن الطبيعة مطردة، فإذا درسنا مبدأ الطيران عند النسور فهو مبدأ مطرد عند جميع الطيور.

- يلجأ التفسير الوضعي إلى مبدأ الارتباطات والذي أطلقنا عليه سابقا السببية التلازمية، في الإحصاء يوجد عدة طرق لقياسها، ودور كايم يعطيها منزلة القانون، والارتباط هو تلازم وقوع الظاهرتين معا دون أن نقول أن هذه سبب تلك، والطلبة غالبا ما يبحثون إحصائيا عن علاقات الارتباط ثم يقرؤونها على أنها علاقة سببية وهذا غير صحيح، يوجد في الإحصاء صيغ أخرى تقيس السببية مثل مربع إيتا، لكن الارتباطات تظهر العلاقة التلازمية بين الظاهرتين أو المتغيرين.

الإنتحار عند دوركايم نموذجا:

نظهر المقاربة الوضعية لدوركايم في خطوات مختصرة.

- إشكالية دوركايم لم تكن تدور حول الأسباب الذاتية التي تدفع الشخص للإنتحار كما كان مطروحا عند علماء النفس، وإنما كان مهتما بدراسة التباينات في معدلات الإنتحار التي وجدها من خلال المعطيات الإحصائية الرسمية التي حصل عليها من الجهات المعنية، أي أن تساؤلاته كانت تدور حول لماذا مجموعات بشرية معينة

ترتفع لديها معدلات الانتحار دون غيرها، ولماذا فترات زمنية معينة ترتفع فيها معدلات الانتحار دون غيرها.

- إفتراض دوركايم أن التباين في معدلات الانتحار بين المجموعات المختلفة يعود إلى عوامل اجتماعية تتعلق ببنية الجماعة ذاتها، وافترض أن التباين في معدلات الانتحار من فترة زمنية لأخرى يعود لأسباب تتعلق بتغير الظروف الاجتماعية.

- أول شيء قام به هو تحديد مفهوم الانتحار، قام دوركايم بتحديد كل الأفعال التي يمكن إدراجها تحت مفهوم الانتحار بحيث تكون مستقلة عن غيرها من الخصائص الأخرى لمختلف أشكال الميئات، وتوصل إلى التعريف التالي <<الانتحار هو كل موت ينتج بشكل مباشر أو غير مباشر عن فعل إيجابي أو سلبي، ينجز من طرف الضحية ذاته، الذي كان يعلم (عند إقدامه على الفعل) بالنتيجة المترتبة عن فعله>> (1).

- عينة بحثه بطبيعة الحال لن تكون مجموعة المنتحرين الأموات بمقبرة مونبارناس، وإنما كانت عبارة عن بيانات إحصائية رسمية عن معدلات الانتحار في مجموعة من الدول الأوروبية الرئيسية كما أطلق عليها نذكر منها: بروسيا، فرنسا، إنجلترا، بافاريا، الدنمارك، ساكسونيا، بلجيكا... وخلال فترة زمنية محددة من 1841 إلى 1872، فدوركايم إذن يقوم باستقراء البيانات الإحصائية عن معدلات الانتحار في دول محددة وزمن محدد.

- قام دوركايم بتحليل مجموعة من المقاربات النظرية السابقة حول الانتحار سواء سيكولوجية، أو بيولوجية، أو جغرافية، أو إثنية (عرقية)، أو كونية...حل كل مقارنة على حدى ثم فنّدها كلها لأنها غير مجدية في تفسير معدلات الانتحار التي وجدها، مثلا فنّد المقاربة العرقية عندما وجد أن معدلات الانتحار تتباين داخل نفس العرق، كما وجد أن معدلات الانتحار داخل نفس العرق تتغير عندما ينتقلون إلى مجتمع آخر، ولو كان العرق متغيرا مفسرا لتشابهت النتائج داخل نفس العرق، بعد تفنيده لتلك المقاربات إنطلق من مقارنة نظرية إجتماعية عالجه هو نفسه في كتبه السابقة تقول أن المجتمع كلية متماسكة ذات وجود طبيعي، بمعنى أن المجتمع موجود ككلية بصورة تلقائية قبل وجود الأفراد، والمجتمع يمارس القهر على الأفراد عن طريق ميكانيزم الضبط الاجتماعي فقواعد المجتمع أمره وإلزامية وإذا قلنا المجتمع فالأمر نفسه إذا قلنا الجماعات العامة، هذه المقاربة تعني أن المجتمع يوجه دائما وباستمرار رغبات الأفراد نحو تحقيق أهداف المجتمع، في ظل هذه المقاربة فسر الانتحار (سيأتي لاحقا).

- قام دوركايم باستخراج مجموعة من الانتظامات داخل تلك الإحصائيات وصنفها ضمن فئات التشابه والإختلاف باستخدام المقارنة المتزامنة (ضمن نفس الفترة)

(1) Émile Durkheim, Le Suicide, éd Félix Alcan, Paris, 1897, p5

حسب مجموعة من المتغيرات كالنوع (ذكر، أنثى)، الحالة العائلية، المعتقد الديني، الإلتحاق الجغرافي... كما قام بمجموعة من المقارنات المتعاقبة (بين فترات زمنية مختلفة)، واستخرج فئات التصنيف التي توصل إليها وعرضها في جداول سهلة القراءة واضحة.

- من خلال تحليله لتلك الجداول التي عرض فيها فئات التصنيف توصل إلى تكوين نماذج اجتماعية عن الإلتحاق تبعا للأسباب التي أنتجت تلك النماذج الإلتحارية، كل فئة تصنيف تتطابق مع نموذج من تلك النماذج، كيف توصل دوركايم إلى الأسباب، رجع إلى المحاضر القانونية الرسمية حيث تسجل الدوافع المفترضة للإلتحاق وقام بعمل مقارن داخل الوثائق ليصنفها من الأسباب الأشد قربا إلى مادون ذلك، ثم قام بعمل آخر إذ قارن ضمن تلك الأسباب فألغى كل الأسباب غير المتكررة التي تأخذ طابع الخصوصية وأبقى على الأسباب التي تتكرر فتأخذ طابع العمومية.

- تفسير النتائج: لن نعرض لجميع نماذج الإلتحاق فلنأخذ عرض كتاب الإلتحاق أو عرض مجمل الدراسة وإنما نريد أن نطلع الطالب من خلال نموذج واحد من النماذج على طريقة التفسير عند الوضعيين، توصل دوركايم إلى أربع نماذج، هي الإلتحاق الأناني، الإلتحاق الإيثاري، الإلتحاق اللامعياري، الإلتحاق القديري.

نأخذ مثلا الإلتحاق الأناني، يبدأ دوركايم في تحليل مجمل النتائج التي توصل إليها، فقد وجد عند مقارنة معدلات الإلتحاق حسب المعتقد الديني أن معدلات الإلتحاق عند البروتستانت أعلى منها عند الكاثوليك والطوائف الدينية الأخرى، واليهود أقل المجتمعات إلتحارا من غيرهم، وعند البحث في العقيدة البروتستانتية وجد أنها أقل ممارسة للضبط الاجتماعي فهي تشجع البحث الحر، هذه الحرية تفقد الرأي العام قوته في حين تتضخم الآراء الفردية، وتزيد الإنشاقات فيضعف الضمير الجمعي والتماسك الاجتماعي، فالكنيسة البروتستانتية أقل إندماجا داخل المجتمع من الكنيسة الكاثوليكية، أما اليهود فلأنهم تاريخيا تعرضوا للرفض والتهميش ولدت لديهم مشاعر تضامن قوية فيما بينهم.

الإلتحاق الأناني ناتج إذن عن ضعف الإندماج الاجتماعي للفرد، ويحدث ذلك عندما تكون الجماعات العامة كالمنظومة الدينية أو التربوية أو الاسرية أو السياسية... ضعيفة وغير قادرة على ممارسة الضبط، فيضعف الضمير الجمعي وينخفض التماسك وتنتشر الفردية والأنانية فتنتشر الكآبة والقلق المفضيان إلى الإلتحاق، وعلى نفس المنوال ناقش دوركايم بقية المتغيرات ففيما يخص الحالة العائلية مثلا فالأرامل أكثر إلتحارا من المتزوجين والعزاب أكثر إلتحارا منهما الإثنيين، وهذا ليس لخاصية طبيعية في الزواج وإنما يفسر دوركايم ذلك بالتضامن الأسري القوي لدى المتزوجين الذي يجعل معدلات الإلتحاق تنخفض لديهم، أما فيما يخص المقارنة التعاقبية عبر فترات زمنية مختلفة فقد وجد أن الفترات الزمنية التي ترتفع فيها معدلات الإلتحاق هي التي تشهد حالات من الأزمات المختلفة الحادة كالحروب، التطور الكبير

والسريع، الازمات الإقتصادية، تؤدي هذه الأحداث التي تحدث بشكل مفاجئ وتصاعدي إلى تحولات عميقة في بنيات المجمع، هذه الخلطة المفاجئة تؤدي إلى التفكك الاجتماعي وهو العامل المفسر لارتفاع معدلات الانتحار في تلك الفترات دون غيرها.

III / نقد المدرسة الوضعية: نذكر فقط أهم الانتقادات الموجهة للوضعية فهي كثيرة

- مدرسة لم تعترف بالتغير وإنما فقط بالتطور وفق قوانين ثابتة لا تتغير فأصبح الإنسان وفق هذه المدرسة لا إرادة ولا حرية له تحركه قوانين الطبيعة، حاربت الوضعية الميتافيزيقا والفلسفة التأملية واعتبرتها فلسفة سلبية وهي بقتلها للحرية والإرادة البشرية وقعت في عمق السلبية.

- منتقدو الوضعية يرون أن الظواهر الاجتماعية والظواهر الطبيعية مختلفان تماما، والموضوع في العلوم الإنسانية يختلف تماما عن الموضوع في العلوم الطبيعية مما يمنع دراستهما بنفس المنهج ونفس الوسائل.

- تشييء الظاهرة الاجتماعية معناها كما يقول ميل تشيرتون إضفاء عليها <<وجودا مستقلا لا تحظى به في الحقيقة>> (1).

- أنتوني جيدنز يقف أيضا ناقدا للمقولة الدوركايمية شيئية الظاهرة، فعلم الاجتماع بالنسبة لجيدنز لا يهتم بعالم الأشياء المعطاة مسبقا وإنما بعالم تنتجه الذوات بفعل المشاركة، وعملية إنتاجهم للمجتمع وإعادة إنتاجه لا يتم نتيجة عمل غريزي كما هو الشأن لدى الحيوانات، بل هو إنتاج له معنى ومشروط بشروط الوجود التاريخي (2) (بنية المجتمع، المعايير، القوة...).

- الوضعية مقارنة تمجد النظام القائم، وفي هذا يقول هربرت ماركيز أن الوضعية تعلم الناس <<أن نظامهم الاجتماعي يندرج تحت قوانين أزلية لا يجوز لأحد أن يخالفها وإلا كان مستحقا للعقاب>> (3)، فالتطور خطي وكل مرحلة هي امتداد لسابقتها.

- فصل الظاهرة الاجتماعية عن محيط القيم وكأن الإنسان آلة تحركها مبادئ واحدة تصدق على البشر.

- التاريخ البشري الحقيقي لم يكتب في إطار الأحوال الثلاث فهناك اختلافات بين المجتمعات وداخل المجتمع الواحد، كما أن الحالة الوضعية التي بشر بها كونت

(1) ميل تشيرتون وأن براون، علم الاجتماع النظرية والمنهج، تر: هناء الجوهري، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012، ص82

(2) أنتوني جيدنز، قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع "نقد إيجابي للاتجاهات التفسيرية في علم الاجتماع"، تر: محمد محيي الدين، دط، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2000، ص279.278

(3) هربرت ماركيز، مرجع سابق، ص332

كنهاية تطور البشرية بحيث تختفي الميتافيزيقا والدين السماوي أو الطبيعي كما
يسميه ليحل محله دين وضعي، يثبت الواقع خطأه.

ملخص عن المدرسة الوضعية

تعرفنا في المحاضرة الأولى عن المدرسة الوضعية على الوضع التاريخي الذي
نشأت فيه، والذي عُرف كفترة انفجار معرفي ضخم في مجال العلوم الطبيعية،
والإنتصارات المذهلة التي حققها المنهج التجريبي التي ظهرت في كم ونوع الإنتاج
العلمي على المستوى التقني، قدم المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية الكثير من
الاختراعات التي تسهّل حياة البشر وترقّه عنهم وتختزل مسافاتهم وتخفف من
متاعبهم، وعلى المستوى الفكري فتح المنهج التجريبي آفاق المعرفة على أسرار
الكون والسماوات التي كانت تشكّل للبشر عالم من السحر، في هذه الأجواء التاريخية
برز علماء وفلاسفة دعوا إلى استخدام المنهج التجريبي في العلوم الإنسانية
والاجتماعية لتجاوز الفلاسفات الميتافيزيقية واللاهوتية، وتبني الفلسفة الوضعية

القائمة على الملاحظة والتجريب على الوقائع الحسية الجديرة وحدها بالدراسة من وجهة نظرهم، فلا معرفة علمية إلا تلك التي بإمكانها أن تستخرج القوانين الناظمة لحياة البشر أفراد ومجتمعات والتي يمكن تعميمها وتكون قادرة على التنبؤ، وعلى حد قول ماكس فيبر فإن الفلسفة الوضعية بمنهجها هذا نزلت السحر عن العالم، ليس بالمفهوم التقليدي للسحر وإنما بمفهوم الدهشة.

وعرضنا في الشق الثاني من المدرسة الوضعية للتصورات المعرفية والفلسفية التي تقوم عليها، كفلسفة مادية تنظر إلى الوجود نظرة مادية خالية من المعنى والروح والغاية، فالطبيعة لا هدف ولا غاية لها في نظرهم، فالمطر يسقط لأن قانون يتعلق بالمطر يحكمه، والشمس تشرق شرقا وتغرب غربا لأنها يجب أن تشرق وتغرب كل يوم بالطريقة ذاتها وفق قانون يحكمها في ذاتها، والبشر والمجتمعات تولد وتموت وما يهلكها إلا الدهر، لا غاية، لا مأل، لا هدف، توجد قوانين تحكم الأشياء والإنسان وكفى، عرضنا لهذا النموذج المعرفي الإدراكي الذي يحرك هذه الفلسفة كقواعد منهج وكتصورات معرفية وكنسق تفسير، وقد استعنا قدر المستطاع بالمراجع التي لها علاقة مباشرة بالمدرسة الوضعية، واجتهدنا ما استطعنا في إيصال أفكار أصحاب المدرسة أنفسهم من مؤلفاتهم هم أولا ثم ما كُتب حولهم ثانيا.

مراجع المدرسة الوضعية:

- 1- السيد تقادي، معيار الصدق والمعنى في العلوم الطبيعية والإنسانية مبدأ التحقيق عند الوضعية المنطقية، دط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1991
- 2- أليكس إنكلز، مقدمة في علم الاجتماع، تر: محمد الجوهري وآخرون، ط6، دار المعارف، القاهرة، 1983
- 3- أنتوني جيدنز، قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع "نقد إيجابي للاتجاهات التفسيرية في علم الاجتماع"، تر: محمد محيي الدين، دط، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2000
- 4- جاك هرمان، خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية، تر: العياشي عنصر، ط1، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2010
- 5- جان فرنسوا دورتيه، معجم العلوم الإنسانية، تر: جورج كتورة، ط2، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث "كلمة"- المؤسسة الجامعية للدراسات "مجد"، الإمارات-لبنان، 2011
- 6- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الجزء الثاني، 1982
- 7- جون دن، جون لوك، تر: فايقة جرجس حنا، سلسلة مقدمة قصيرة جدا، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2016
- 8- دافيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري، تر: محمد محجوب، ط1، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، 2008
- 9- فرنسيس بيكون، الأورغانون الجديد أو الوسيلة الجديدة لاكتشاف المعرفة، تحرير ليزا جاردن ومايكل سيلفرثورن، تر: منذر محمود محمد، ط1، دار الفرقد، سوريا، 2016
- 10- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005
- 11- ميل تشيرتون وأن براون، علم الاجتماع النظرية والمنهج، تر: هناء الجوهري، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012
- 12- هربرت ماركيز، العقل والثورة هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية، تر: فؤاد زكريا، دط، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1970
- 13- Auguste Comte, Cours de Philosophie Positive, éd Rouen Frères Libraires, Tome Premier, Paris, 1830

- 14- Auguste Comte, Cours de Philosophie Positive, Tome Cinquième, éd Bachelier, Imprimeur-Libraire, Paris, 1841
- 15- Auguste Comte, Cours de Philosophie Positive, Tome Sixième, éd Bachelier, Imprimeur-Libraire, Paris, 1842
- 16- Émile Durkheim, Les Règles de la Méthode Sociologue, éd Félix Alcan, Paris, 1895
- 17- Herbert Spencer, Les Premières Principes, tr : M.E.Cazelles, 7^{ème} éd, éd Félix Alcan, Paris, 1894
- 18- Herbert Spencer, Introduction a la science sociale, 3^{ème} éd, éd Félix Alcan, Paris, 1903
- 19- Jan Sebestik et Antonia Soulez, Le Cercle de Vienne Doctrines et Controverses, éd L'Harmattan, Paris 2001

المدرسة الماركسية

المحور الأول: النشأة، التاريخ، والرواد

أهداف الدرس المتعلق بالمدرسة الماركسية:

المدرسة الماركسية تسمية تنسب إلى مؤسسها كارل ماركس، تعتبر مدخل منهجي لتفسير العالم إنطلاقاً من رؤية مادية جدلية، وهي أيضاً ممارسة فالمعرفة تتشكل من الواقع وتنعكس في الوعي ليعيد إنتاجها أفكاراً ونظريات وفعل، وقد تطورت الماركسية بعد ماركس حتى أن ما كُتب حول الماركسية أكثر مما كُتب حول مختلف المدارس الأخرى مجتمعة، وقد استطاعت أن تتحوّل إلى إيديولوجيا العمال المقهورين والكادحين فكانت عقيدة الثورة البلشفية في روسيا، واستطاعت أن تخلق نظاماً جديداً هو النظام الإشتراكي لفترة من الزمن في كثير من الدول، وبعد سقوط الشيوعية أو الإشتراكية ما زالت الماركسية تلهم التنظيرات المختلفة حول الصراع والهيمنة ليس بالضرورة امتداداً أعمى ولكن نقداً وتطويراً، هل بقيت الماركسية الكلاسيكية قائمة نقول لا لقد تحوّلت إلى تنظيرات صراعية في الدولة وفي المجتمع وفي التنظيمات وبين الدول، لكن معرفة الأصول ضرورية لفهم تاريخ أي علم أو أي مدرسة أو نظرية، نقول مع كارل بوبر لقد حاول ماركس وأخطأ في عقائده الرئيسية لكن محاولته لم تذهب سدى لقد فتح أعيننا على أشياء كثيرة أهمها فكرة الصراع أو التدافع.

I/ التعريف بالماركسية :

الحقيقة أن تعريفها هو المحاضرة كلها من ألفها إلى يائها لكن لا بأس بأن نعطي تعريفاً عاماً لها أولاً

بالنسبة للماركسية الكلاسيكية فهي نظرية الصراع الطبقي أو هي نظرية مصالح الطبقة العاملة (البروليتاريا)، وهي ممارسة ثورية لقلب الأوضاع القائمة، وبالتالي هي إيديولوجية الحركة الشيوعية، وهي أيضاً منهج جدلي مادي لدراسة تطور التاريخ البشري والمجتمعات، يعرفها سلامة كيلة بأنها <<هي طريقة التفكير أولاً، وأنها منظومة قوانين ومفاهيم تشكل آليات النشاط الذهني الضروري لكل بحث، وخصوصاً لكل بحث في الواقع، إنها منهجية وعي (كشف وتفسير) يكون الواقع هو ميدنها الأساسي>> (1)، الماركسية الحديثة أو ما يطلو للبعض تسميته ماركسية ما بعد ماركس فهي إختزالاً لنظرية الصراع بأشكاله المختلفة، لكن تبقى الماركسية في عمومها هي منهج في التفسير التاريخي لتطور المجتمعات.

II/ تاريخ ونشأة الماركسية :

(1) سلامة كيلة، ما الماركسية تفكيك العقل الأحادي، روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، دت، ص 82

إنه عرض طويل لا بد منه إستثناء مع هذه المدرسة بسبب ميلادها من رحم السياسة والأيدولوجيا التي قد تخلط مفاهيم الطلبة في طور ما قبل التدرج. كل مدرسة فكرية ولها مؤسس أو مجموعة مؤسسين، غالباً لا تسمى المدرسة باسم مؤسسيها في العلوم الإنسانية والاجتماعية، في حين نجد في العلوم البحتة كما يطلق عليها كالفيزياء والكيمياء والرياضيات مثلاً كثيراً ما تسمى النظرية أو القانون باسم أصحابها (نظرية إقليدس، نظرية فيثاغورس، معادلة شرودينغر، قانون هابل للتمدد الكوني، قانون كيبلر لحركة الكواكب ومن هذا الكثير)، في العلوم الإنسانية والاجتماعية المدرسة الفكرية أو النظرية تسمى من خلال المضمون الفكري الذي تحمله، والقوانين في العلوم البحتة هي ذلك المحتوى الذي يسمى باسم مكتشفه غالباً كتقليد متوارث في هذه العلوم، فالقوانين مترجمة ومتصلة بعضها ببعض بشكل يبني كبير إضافة إلى الثبات الكبير للقوانين في هاته العلوم وخلوها من البعد الأيدولوجي، وتسمية المدرسة الماركسية في العلوم الاجتماعية باسم صاحبها لنا فيه وجهة نظر نحب أن نعرضها بعيداً عن الإعتباطية.

مؤسس هذه المدرسة هو كارل هنريش ماركس (Karl Heinrich Marx) [5 ماي 1818 - 14 مارس 1883]، فيلسوف ألماني، وعالم اقتصاد، ومؤسس صحيفة، وقائد من قادة الحزب الشيوعي وكاتب بيان، يؤمن بالتغيير الثوري، من عائلة يهودية ثرية من الطبقة المتوسطة، تحوّل والده إلى البروتستانتية اللوثرية قبل ولادة ماركس حتى يمكنه ممارسة وظيفة المحاماة فقد كان محضوراً على اليهود بعض مهن المجتمع الراقي، تزوّج من البارونة جيني فون ويستفالن، و عاش في ليل منفى طويل إسمه أقصى عتبات الفقر التي لا تلبّي حتى أساسيات حياته، لم تتحسن أحواله بعض الشيء إلا قبيل وفاته بعد أن أصبح المؤسس والقائد الروحي للعصبة الشيوعية، يعتبر ماركس واحد من الأربعة المؤسسين لعم الاجتماع الحديث إلى جانب كل من أوغوست كونت ودوركايم وماكس فيبر.

إذا تتبعنا المسار السياسي لماركس نفهم جيداً لماذا سميت حركة سياسية وفكرية راديكالية ثورية باسمه وامتد ذلك الاسم إلى مجال الفكر الاجتماعي فيما بعد كأحد أبرز المدارس الاجتماعية، بدأ ماركس نظاله السياسي بكتباته الصحفية العنيفة اللهجة بألمانيا منتقداً الليبرالية التي تغوّلت في المجتمعات الغربية وخلقت طبقة من الفقراء والمهمشين والعمال المستغلين، هذه الكتابات التي سببت له مضايقات من الحكومة البروسية (ألمانيا حالياً) أجبرته على السفر نحو فرنسا سنة 1843 التي بقي بها سنتين، يصف الفيلسوف والمنظر الاجتماعي الروسي "أشعيا برلين" ISAIAH BERLIN _ واحد من كثير ممن كتبوا عن ماركس _ تلك السنتان فيقول >>... ففي ذلك الوقت كان قد عُرف عنه أنه صحفي متحرر ذو قلم حاد أرغم على مغادرة ألمانيا لأنه دعا بعنف إلى الإصلاح الديمقراطي. وإن هما إلا عامان بعد ذلك حتى قد أصبح معروفاً لدى الشرطة في دول كثيرة بأنه شيوعي ثوري لا يقبل

مساومة⁽¹⁾، المضايقات لاحقته بفرنسا ليُطرد منها سنة 1845 بطلب من الحكومة البروسية فاتّجه نحو بروكسل (بلجيكا) وهناك انظمّ سنة 1846 إلى حزب العدالة الذي وُصف بالمتطرف والذي تحوّل سنة 1847 إلى الرابطة أو العصبة الشيوعية، ببروكسل قدم ماركس طلبا إلى الحكومة البروسية للحصول على جواز سفر يسمح له بالسفر نحو أمريكا غير أنّ طلبه رُفض بسبب دعوى التوقيف المسجل ضده، عندها تخلّى ماركس عن جنسيته الألمانية وأصبح دون جنسية ولا وطن. وببروكسل دائما سنة 1848 كتب بيان الحزب الشيوعي غير أنّ البيان نُشر دون ذكر اسم ماركس بل ظهر إلى العالم باسم الرابطة الشيوعية (العصبة الشيوعية)، في فيفري من نفس السنة تحولت قيادة الرابطة من لندن إلى بروكسل ووضعت بيد ماركس وأصبح بذلك أهمّ رموز الرابطة ورموز الفكر الشيوعي على الإطلاق، في نفس السنة انفجر الربيع الأوربي المشكل أساسا من العمال والفقراء ليمتد إلى أغلب دول القارة العجوز، هولندا، النمسا، ألمانيا، الدانمارك، إيطاليا، المجر، أوكرانيا، بولندا، السويد، سويسرا، بلجيكا، إيرلندا....

فترة أخرى مهمة في حياة ماركس إنّه سفره نحو إنجلترا سنة 1849 حيث يخيب أمله في الربيع الأوربي الذي فجرته الطبقة الهشة من العمال والشغيلة التي أنهكتها الرأسمالية المتوحشة، فيطوّر فكرة إنشاء الحزب الشيوعي سنة 1850 لسان الطبقة البروليتارية عبر العالم كافة، لكن سرعان ما يتلاشى ذلك الحلم سنة 1852 حيث شيئا لم يتغير، ولا شيء في الأفق السياسي والاجتماعي بأروبا يوحى بحلحلة الأوضاع العمالية المزرية وبحلم انهيار الرأسمالية الذي بشرّ به، فيقرر _ خاصة وأن عدد كبير من أصدقائه بالرابطة تمّ اعتقالهم والزج بهم في السجون _ حل رابطة الشيوعيين والتفرغ للكتابة التي شكلت أهم ركائز التنظير للفكر الشيوعي، في 28 سبتمبر سنة 1864 بلندن تمّ دعوته من طرف مجموعة من الثوريين الأوربيين الذين أرادوا تأسيس الجمعية الأممية للعمال (الأممية الأولى) Association internationale des travailleurs (AIT) ليمثل ماركس العمال الألمان، يصبح ماركس واحدا من أعضاء المجلس العام، يكتب ماركس المشروع الداخلي للجمعية والنداء الموجه لبروليتاريا العالم، وسرعان ما يصبح نافذا داخلها يحرك دواليبها ويتحوّل فيما بعد حتى بعد وفاته إلى أهمّ مفكر ومنظر ترتكز عليه الأممية الثانية والثالثة والفكر الإشتراكي عموما في مشروعها الثوري القادم مع لنين والثورة البلشفية.

إنفجرت الخلافات الإيديولوجية داخل الأممية الأولى إثر إنضمام الأناركي (الفوضوي) "ميخائيل ألكسندروفيتش باكونين" MICHAEL ALEXANDROVICH BAKUNIN إلى الأممية سنة 1868، ماركس الثوري الذي

(1) إيسيا برلين، كارل ماركس، تر: عبد الكريم أحمد، دط، دار القلم، القاهرة، دت، ص66

يؤمن بضرورة وجود سلطة منتخبة ديموقراطية من الشيوعيين، وباكونين الثوري اللاسلطوي الفوضوي الذي لا يؤمن بضرورة وجود سلطة بل بتشكيل ديكتاتورية من البروليتاريا، وجهين متناقضين متصارعين داخل الأممية، التي تنقسم سنة 1872 في مؤتمر لاهاي (هولندا) إلى جناح اللاسلطويين بقيادة باكونين (الباكونينية) الذي تم حلّه سنة 1877، وجناح الماركسيين (الماركسية) بقيادة ماركس الذي تمّ حلّه فعليا سنة 1876، من هذه اللحظة التي تمّ فيها الانقسام بدأ التأريخ لعبارة "التيار الماركسي" تمييزا للطائفة الماركسية عن غيرها من الطوائف الثورية الأخرى المخالفة لها ويصبح ماركس رمز الطائفة الماركسية، حتى الآن لم يطغ على المشهد ماركس المفكر وإنما ماركس المناضل من أجل قضية البروليتاريا التي أرقت حتى مات، فنحن إذن أمام مناضل وثوري ورجل سياسة حتى وفاته سنة 1883.

ماركس من الناحية الفكرية _ وإن كان من الصعب جدا فصل فكر ماركس عن نضاله فهو صاحب مفهوم البراكسيس أو نظرية الممارسة _ كان يكتب المقالات التي يسترزق منها ذات الطابع السياسي، وبعض الكتابات الفكرية والفلسفية أهمّها "العائلة المقداسة" مشاركة مع فرديريك إنجلز، وبؤس الفلسفة، والمخطوطات التي لم يكن لها الصدى الذي لاقته كتاباته السياسية الصحفية، وبيان العصبية الشيوعية، ونداء الجمعية الأممية للعمال، وخطاباته في محافل العصبة والجمعية، المجلد الأول فقط من رأس المال نشر باللغة الألمانية سنة 1867 ولم يلق رواجاً البتة حتى تُرجم إلى الفرنسية سنة 1875 هذه الترجمة مع ترجمة مقالات أخرى إضافة إلى البيان و النداء فتحت لأفكار ماركس أبواب الانتشار الكبير نهاية الستينيات، سنة 1878 نشر إنجلز كتابه ضد دوهرينغ Anti-Dühring والذي تُرجم إلى الفرنسية سنة 1880 وهو كتاب يدافع فيه عن الفكر الماركسي باستماتة ضد الأفكار الإشتراكية الأخرى الموجودة في الساحة، وعلى رأسها اشتراكية أوجين كارل دوهرينغ Karl Eugen Dühring ألد خصوم الماركسية، هذا الكتاب أهم من روج آنذاك للماركسية، بقية المنتج الفكري الماركسي ومنها بقية مجلدات رأس المال ظهرت على مراحل بعد وفاته على يد صديق الدرب إنجلز، مابعد ماركس هي المرحلة التي يمكننا الحديث فيها عن المدرسة الماركسية كفكر إجتماعي واقتصادي وفلسفي وسياسي.

III/ تطور المدرسة وأهم روادها :

رأينا سابقا أنه أثناء حياة ماركس ظهرت الإشتراكية الأناركية المعادية لأي سلطة التي ترى إستحالة إقامة مجتمع شيوعي بوجود مؤسسات سلطة بقيادة "باكونين". وظهر في حياة ماركس من حرّف أفكاره كما يذكر إنجلز وهو "أوجين كارل دوهرينغ" رائد الإشتراكية الديموقراطية ترى الحل في النظام الديموقراطي عن طريق الاقتراع. كما ظهرت الإشتراكية الفابية من روادها عالم الاقتصاد البريطاني "سيدني ويب" وزوجته عالمة الاجتماع "مارثا بياتريس ويب" و

"غراهام والاس" بريطاني مختص في السياسة وعلم الاجتماع، تنفي الفابية حتمية الصراع وتزى الحل في النضالات النقابية. كما ظهرت الاشتراكية التنقيحية والبعض يحب أن يسميها الاشتراكية التدريجية وتسميها "روزا لوكسمبورغ" الاشتراكية التحريفية، قادها "إدوارد برنشتاين" رجل إقتصاد ومؤرخ اشتراكي ألماني يدعو إلى الإصلاح والتفاوض السياسي بدل التغيير الثوري، ويرى أن الرأسمالية أوجدت وسائل تكييف نفسها مثل تحسين وضع العمال، النقابات، الديموقراطية، وسائل النقل والاتصالات... التي تخمد نار التناقضات وتضفي حالة من التأقلم لدى الطبقات الكادحة. وغيرها كثير هي رؤى ماركسية مخالفة/مقاربة مثل اللينينة والستالينة والتروتسكية والكاوتسكية...

إذا أتينا إلى علم الاجتماع فإن ماركس لم ينشغل في جميع كتبه وممارسته بتقديم نظرية في علم الاجتماع، إنشغل بتقديم نظرية في الإقتصاد السياسي تدرس المجتمع في حركته، أي مسائل تطور المجتمعات وتغيرها، فانشغل بذلك التفاعل بين الإقتصاد والسياسة وتأثير كل ذلك على حياة المجتمعات والناس وتطورها، وكيف يحدد الإقتصاد طبيعة وشكل العلاقات السياسية والاجتماعية في كل فترة من فترات التاريخ، لكننا نعتقد مثل الكثيرين أن الماركسية قدمت أساس نظري ومنهجي لعلم الاجتماع، ويذكر "توم بوتومور" في كتابه نقد علم الاجتماع الماركسي أنه بدأ الدفاع عن علم اجتماع ماركسي في أول مؤتمر دولي لعلم الاجتماع سنة 1894 وسنة 1900 خصص جزء من المؤتمر لمناقشة المادية التاريخية⁽¹⁾، والبعض يعتبر النظرية الصراعية إمتدادا ماركسيا كونها تتناول الصراع كتغيير اجتماعي فيصنّف الكتابات حول الصراع كماركسية جديدة والبعض يراها نقدا للوظيفية، لا يمكننا بأي حال أن نأتي على جميع المفكرين المتأثرين بالمدرسة الماركسية تجديدا أو تجاوزا أو امتدادا في الفلسفة أو علم الاجتماع أو الإقتصاد وإنما سنقتصر على بعض الأسماء (الرنانة فقط) التي تركت أثرا لافتا.

■ "رايت ميلز" Wright Mills (1916-1962)

عالم الاجتماع الأمريكي الثائر على السلطة الحاكمة في أمريكا قسّم المجتمع إلى نخبة السلطة (النخبة السياسية) الممثلة لمصالح الرأسمالية الإمبريالية والقوة العسكرية، هذه النخبة أو الصفوة السياسية دائما تتخذ القرارات الرئيسية، وكتلة الشعب مدلس عليها ومتلاعب بها عن طريق تعليم تتحكم فيه السلطة ونخبته وتمارس قوتها بشكل خفي بالتلاعب والتدليس، وقد تمكنت نخبة السلطة في أمريكا من صنع الآلة التي تعيد إنتاجها مثل مدارس النخبة، جامعات النخبة، نوادي النخبة، إيديولوجيا النخبة...

(1) توم بوتومور، نقد علم الاجتماع الماركسي، تر: محمد علي محمد وعلي عبد الرزاق جبلي، دط، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1984، ص 42

■ "لويس ألتوسير" (1) Louis Althusser (1918-1990):

الفيلسوف الماركسي البنيوي، الجزائري المولد الفرنسي الموطن، نعتبره من أكثر المفكرين والفلاسفة وفاء للنظرية الماركسية إذ عمل على إعادة قراءة ماركس والكشف عن البنيات اللاواعية الخفية داخل المجتمع وليس فقط البنيات الاقتصادية، نرى أنه قدم إضافات جد مهمة وبالأخص تناوله للأجهزة الإيديولوجية للدولة، فالدولة بالنسبة له قوة وجهاز يجب التمييز بينهما، فالبروليتاريا في صراعها مع السلطة البرجوازية الحاكمة هدفها الاستلاء على قوة الدولة ثم تدمير جهاز الدولة القائم، وأجهزة الدولة نوعين الجهاز القمعي المتمثل في القوة كائنا ما كانت ومؤسساتها، والجهاز الإيديولوجي المتمثل في المؤسسات الإيديولوجية (الأسرة، القانون، الثقافة، التعليم، السياسة...)، الدولة تقوم على الجهازين معا القمع والإيديولوجيا، القوة القمعية تأمن الظروف السياسية لإعادة إنتاج الطبقة المهيمنة عن طريق أجهزة الدولة الإيديولوجية، إذ تعتبر وسيط فعال وبالأخص التعليم في ثنائيتها المدرسة/الأسرة في العصر الحديث والذي حل محل الدين قديما في ثنائيتها الكنيسة/الأسرة.

■ "لويس كوزر" Lewis Coser (1913-2003)

عالم اجتماع ألماني المولد، أمريكي الموطن، كصراعي هو الآخر ينظر إلى الصراع من منظور وظيفي، حيث يرى أن المجتمع في جميع مجالاته يحوي صراعات مصالح على السلطة سواء سياسية أو إدارية أو اجتماعية وتوترات ناتجة عن ذلك، غير أن الصراع والتوتر قد يكون من أهم عوامل الترابط والتماسك داخل الجماعة، كما هو الشأن عندما تدخل جماعة في صراع مع أخرى فتكون سبب في زيادة التماسك داخل الجماعتين، أو كما هو الشأن في تحالف الأحزاب في صراعها مع السلطة، هذا الأمر يتعلق عند كوزر بنوع البناء فالمنفتح يستفيد من الصراع ويعيد ترتيب نفسه، في حين المنغلق قد تكون الصراعات داخله مخلخة للتماسك، وأيضا يتوقف على طبيعة البناء، فالبناء المتسامح يحمل ميكانزمات استعادة التوازن داخله على عكس البناء الجامد.

■ الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني "رالف دارهندوف" Ralf Dahrendorf

(1929-2009):

يعتبر من أهم مؤسسي نظرية الصراع الاجتماعي بعد ماركس، يرى الصراع حالة دائمة تصاحب البشر في جميع مجالات الحياة حتى داخل الأسرة الواحدة، بالنسبة له تمايز وانقسام الحياة الاجتماعية بين البشر طبيعية متأصلة، فالحياة أصلا

(1) Louis Althusser, *Idéologie et appareils idéologiques d'État* (Notes pour une recherche), <http://www.urbanlab.org/articles/ideology/Althusser%201970%20%20ideologie%20et%20appareils%20ideologiques%20d'etat.pdf>

ملبئة بالتناقضات والمصالح المتعارضة بين الجماعات التي تمتلك القوة والتي تفتقدها، التي تمتلك القوة تدافع عن بقاء قوتها والتي تفتقدها تصارع للحصول عليها مما يستدعي بالضرورة وجود سلطة قاهرة تخلق التوازن، مادام يوجد سلطة وقوة (حاكم/محكوم، تابع/متبوع، مسيطر/مقهور، أمر/مأمور، مستغل/مستغل...)، وما دام الصراع بالنسبة له يتولد من وجود السلطة والقهر وليس من علاقات وقوى الإنتاج فهو ليس بالضرورة حالة تناقض وإنما قد يكون حالة توازن واستقرار، كما يرى أيضا أنه في العصر الحديث ظهرت طبقة وسطى خلقت التوازن داخل المجتمع بين طبقة الرأسماليين وطبقة الكادحين.

■ بيير بورديو (1930-2002) Pierre Bourdieu:

عالم اجتماع فرنسي يطلق عليه البعض الماركسي البنيوي والبعض يعتبره صاحب مدرسة البنيوية التكوينية والبعض يطلق عليه الماركسي المجدد، غير أن أعماله التي يدور حولها حول الهيمنة والصراع من خلال زاوية رؤية ناقدة للماركسية جعلنا نضعه هنا بين الصراعيين الجدد، فالمجتمع عند بورديو هو فضاء للهيمنة والصراع والتمايز، اهتم بإظهار أهمية ودور البنيات الخفية في إنتاج وإعادة إنتاج الهيمنة والتمايز كالمناهج التعليمية والمدرسة والفن... باعتبارها حقول للإنتاج الرمزي، فالطبقات الاجتماعية تتشكل داخل وعي الأفراد رمزيا من خلال الرأسمال الرمزي (لغة، شهادات، فن، أسلوب حياة...) التي تُستدمج في مدركات الفرد عن طريق التنشئة مشكلة ما أطلق عليه الهابتوس أو الملكة، فلا يوجد رأسمال إقتصادي مؤثر فقط بل أيضا رأسمال اجتماعي من نفوذ وقوة وسلطة ومكانة اجتماعية، ورأسمال ثقافي من تعليم وشهادات ولغة وذوق وأسلوب حياة..، فقد سعى بورديو إلى تحليل آليات الهيمنة والتمايز والتراتبية داخل المجتمع ليس فقط من خلال البنية التحتية كما فعل ماركس وإنما أيضا من خلال البنية الفوقية.

نذكر الآن باختصار شديد رواد آخرين مهمين أمثال

■ "دافيد لوكود" David Lockwood (1929-2014)

عالم الاجتماع البريطاني الذي اهتم بمسألة وعي طبقة العمال بمصالحها المشتركة والوعي الزائف الذي يحصل لفئة من العمال فيبعدها عن واقعها الموضوعي، فالطبقة بهذا الشكل تحولت إلى اتجاه يتبناه الأفراد كوعي زائف لحقيقة ما هم عليه، مزيفين وواقعهم الموضوعي الذي يضعهم ضمن طبقة يرفضون الإنتماء إليها ذاتيا في حين هم ينتمون إليها موضوعيا.

■ "راندال كولينز" Randall Collins (1941- على قيد الحياة):

عالم الاجتماع الأمريكي المعاصر يرى أن الإنسان إلى جانب كونه كائن اجتماعي فهو أيضا كائن صراعي، حلل الصراع كعلاقة تفاعلية عنيفة، بالنسبة له لا نبحث

عن العنف في ملامح الناس وإثما في ديناميات المواقف فكل صراع يصدر من توتر
"المواجهة"، فالصراع متعلق بسوء المعرفة بكيفية الفعل فهو ليس دافع عدواني
وإنما توتر علائقي.

المدرسة الماركسية المحور الثاني: التصور المنهجي للمدرسة العنصر الأول: القواعد المنهجية والنموذج التصوري

I/ القواعد المنهجية الاسترشادية للمدرسة الماركسية: المعروف عن المدرسة الماركسية أنها قامت على المنهج الديالكتيكي فما هو هذا المنهج
I/1 الديالكتيك (قوانين الجدل):

الديالكتيك Dialektos عند الإغريق يتشكل من Dia وتعني التبادل و Leptos ويعني الجدل، وكان يتمحور في الفلسفة اليونانية القديمة حول اكتشاف التناقض في كلام الخصم، ثم أصبح يُنظر إلى التناقض على أنه أساس الحياة وهو موجود في العقل وفي الموضوع، والعرب كانوا يقولون تعرف الأشياء بضدها، وهيغل هو واضع قوانين الجدل غير أنه كان يرى التناقض في العقل دون الموضوع لذا اعتبر قوانين الجدل هي قوانين للفكر دون الواقع، مع ماركس أصبح الديالكتيك هو قوانين منطقية عامة للحركة وتطور الطبيعة والمجتمع والإنسان أي قوانين للواقع، هي قوانين هذا التغير المستمر والضرورة والفناء، يعرفه غارودي بقوله <<إن الجدل هو منهج البحث الذي يتيح إمكانية دمج الضرورة والتناقضات التي هي محركها بالفكر العقلاني>> (1)، كل شيء من هذا المنظور يحمل بذور تطوره وفنائه، لذا الجدل يدخل في عمق الحركة والتغيير والضرورة والصراع.

المنهج الديالكتيكي يدرس الواقع المتحرك في علاقاته المتشابكة ذات التأثيرات المتبادلة وفي كليته وتطوره إلى غاية فنائه وتحوله، أي دراسة الظواهر دراسة علائقية ففصلها عن بعض يعطي معرفة زائفة، وعلينا دراستها أيضا في حركتها لأن الحركة واقع موضوعي والسكون تجريد محض، إنطلاقا من المنهج الديالكتيكي بنى ماركس جميع أفكاره وتحليله للتاريخ البشري، إذا طبق هذا المنهج على الطبيعة سمي "المادية الديالكتيكية" matérialisme dialectique، وإذا طبق على حياة المجتمع الإنساني أطلق عليه "المادية التاريخية" matérialisme historique، ويطلق عليه البعض المنهج التمهقري-التقدمي بمعنى العودة نحو التاريخ الماضي لاستنتاج القوانين العامة لوجود وتغير المجتمعات باستخدام القياس، قياس الشواهد الحاضرة على الشواهد الماضية واستنتاج القواعد التي تحكم التغير من خلال التحليل العقلي القائم على قوانين الجدل.

ماهي قوانين الجدل:

(1) روجي غارودي، كارل ماركس، تر: جورج طرابيشي، ط1، دار الآداب، لبنان، 1970، ص123

هناك قاعدة فكرية معروفة عند الماديين تقول أنه إذا كانت الظواهر ذات وجود موضوعي فإن العلاقات التي تنشأ بينها حتما ذات وجد موضوعي أيضا، مما يعني أن قوانين تطور المجتمعات ذات وجود موضوعي وسموها "قوانين الجدل" فهي أداة لتحليل تطور المجتمع، فما هي قوانين الجدل هاته.

أ- الكمية والكيفية (تحول الكم إلى كيف)

أولا علينا أن نعرف أن كيف هي صفة الشيء مميزا عن غيره من دونها لا يكون الشيء هو عينه فالكيف مقياس نوعي، الكم صفة عددية فهو مقياس عددي، وكلاهما معا صفة للشيء تشكلان وحدة يطلق عليها معيار الشيء.

التغير الكمي التدريجي زيادة أو نقصان في الشيء يؤدي إلى ظهور تغيرات كيفية فجائية (قفزة)، وأشهر مثال في الفزياء يضرب على ذلك هو تحول المادة بين صلبة وسائلة وغازية إذا تغيرت درجات الحرارة والضغط زيادة أو نقصان عند درجة معينة (النقطة الحرجة)، فالماء هو عينه على مقدار من درجات الحرارة المتركمة فعنما تصل إلى النقطة الحرجة درجة الغليان 100 درجة يتحول إلى بخار، والمثل الفرنسي يقول *La goutte qui fait déborder le vase*، والعرب يقولون "القشة التي قسمت ظهر البعير" وهنا هم يتحدثون عن النقطة الحرجة التي تحدث تغييرا ما، تلك التغيرات الكمية عندما تصل إلى نقطة معينة تؤدي إلى تغيرات كيفية فجائية تحوّل الظاهرة إلى حالة أخرى.

هذا القانون عند الماركسيين قانون عام يشمل الطبيعة والإنسان، التغير الكمي لا يستمر إلى ما لا نهاية له نقطة تحوّل تحدث عندها القفزة الكيفية، لكن علينا أن نشير أنّ كتب ماركس جميعها وكتب إنجلز أيضا لم تعط مثال واحد عن تحول الكيف إلى كم باستثناء هذه العبارة لإنجلز <<تحول الكمية إلى كيفية والعكس بالعكس>> (1)، ولم نجد أيضا عند المتأخرين الذين أمكننا الإطلاع على كتابتهم في موضوع الجدل من تناول تحول الكيفية إلى كمية، بل نجد ستالين وهو يعدل في قوانين الجدل ينفي تماما تحول الكيف إلى كم ويبقى فقط على تحوّل الكم إلى كيف.

ماركس في كتابه رأس المال يقدم تحليلات كثيرة مبنية على هذا القانون نذكر المثال الذي ذكره "إنجلز" عن ماركس <<لا يمكن لأي مجموع اعتباطي للنقود أو القيم أن يتحول إلى رأسمال، بالعكس فإن مقدمة هذا التحول هي توفر حد أدنى معين من النقود أو القيم التبادلية في حوزة مالك منفرد للنقود أو البضائع>> (2)، فمقدار من النقود أو السلع لا يتحول إلى رأسمال إلا عند حد أدنى كمي ضمن الشرط

(1) فردريك إنجلز، ضد دوهرينغ، تر: محمد الجندي وخيري الضامن، دط، دار التقدم، موسكو، دت، ص148

(2) نفس المرجع، ص146

الاقتصادي للمجتمع فالحد الأدنى في الاقتصاد الفرنسي ليس هو الحد الأدنى في الاقتصاد الجزائري لأسباب كثيرة.

ب- وحدة وصراع المتناقضات (كل شيء مترابط، كل شيء يتحول)

بالنسبة لماركس وإنجلز التناقض موجود في العالم الموضوعي وفي العلاقات تلقائياً ويحل نفسه بنفسه يقول إنجلز <<... الحياة هي أيضا تناقض قائم في الأشياء وفي العمليات نفسها، تناقض يولد تلقائياً ويحل نفسه بنفسه دون إنقطاع>> (1)، فالتناقض هو سر الحياة المتغيرة والمتطورة من هذا المنظور فلا حياة دون تناقض، فمن الشيء نفسه *thèse* (إثبات الفعلية للشيء فهو عينه) يتشكل نقيضه *antithèse* (القوة الموجودة في الشيء التي تدفعه للتغير والتحول والتطور) يحدث صراع بينهما يتولد عنه نفي *synthèse* (الحالة الفعلية الجديدة وقوتها الكامنة فيها)، لكن علينا أن نشير على عكس ما يتم فهمه أن الجدلية المادية لا تلغي أو تستبعد تأثير العوامل الخارجية وإنما تعتبرها شرط التحول والتغير أما القوة الكامنة في الشيء تعتبرها سبب التغير، فجسم الإنسان ينمو ويتطور بفضل موت الخلايا وتشكل أخرى ضمن شروط معينة (فالموت موجود في الحياة)، والفراخ تتشكل على أنقاض فناء البيضة... في ظل شروط خارجية وداخلية.

لا توجد المتناقضات مستقلة عن بعضها إنما تشكل وحدة وتتفي بعضها في نفس الوقت لأنها في حالة صراع دائم (2) قد يكون الصراع تناحري وقد يكون "تفاوضي" (مصطلح الأستاذة الباحثة)، فصراع المتناقضات هو دينامو عملية التطور، أشهر مثال اجتماعي هو تناقض مصالح الطبقة البرجوازية ومصالح البروليتاريا والصراع الذي احتدم بينهما على عهد ماركس نفسه وبعده.

ج- نفي النفي (إزالة التناقض)

كل شيء يولد، ينمو، يتطور، يفنى ويأتي على أنقاضه شيء جديد أو حالة جديدة، كل ظاهرة جديدة كانت في السابق جديدة نافية لظاهرة قديمة وهي في اللحظة الحاضرة قديمة عرضة للنفي من قبل ظاهرة أكثر حداثة منها، هذه هي نفي النفي (3)، الجزائريون يقولون "ما يكبر راس حتى يشيب راس" أي أن الأبناء ينمون ويكبرون على طاقة وجهد الوالدين التي تفنى من أجل نماء الأبناء، حيث يتبادل السبب والنتيجة الأدوار السبب يؤدي إلى نتيجة والنتيجة تتحول إلى سبب، والأبناء لا يكونون أبدا صورة طبق الأصل عن الوالدين وإنما هم منتج جديد بقيمه ووعيه وتاريخه، وفي نفس الوقت هم امتداد لتاريخ الوالدين لكن في صورة جديدة أكثر

(1) نفس المرجع، ص 141

(2) فاسيلي بودوستنيك وأوفشي ياخوت، ألف باء المادية الجدلية، تر: جورج طرابيشي، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1979، ص 60.57

(3) نفس المرجع، ص 65

تطورا >> إن النفي الجدلي للنفي يفترض الصيانة والنفي على حد سواء، لكن ما يسان في هذه الحالة هو الإيجابي في الظاهرة القديمة >> (1)، وهذا يعني أن نفي النفي ليس إزالة وإنما إحالة من حالة إلى حالة، تطور مبني على الحالة السابقة تولد من عمقها كما تولد الفراشة من الدودة، فالصراع التناحري بين البرجوازية والبروليتاريا هذا التناقض حُلّ بعد ماركس بأربع وثلاثين سنة بعد أن وصلت التناقضات إلى النقطة الحرجة بالثورة البلشفية على عهد لينين وتروتسكي، فأصبحت الطبقة المحكومة حاكمة والحاكمة محكومة.

2/I الممارسة كأداة منهجية:

الممارسة أو البراكسيس praxis مفهوم محوري في حقل المفاهيم الماركسية، وتعني فعل نشاط تغيير المجتمع، أو تغيير العالم، أو تغيير الطبيعة وليس فقط الإكتفاء بتفسيرها، يوضح روجي غارودي الماركسي السابق معنى الممارسة عند ماركس بقوله >> إن الممارسة نقطة انطلاق الفلسفة الماركسية وهدفها، تتحدد كنشاط اجتماعي، كنشاط لتحويل العالم، يحتوي كل أشكال العمل والكفاح التقنية، والإنتاج الاقتصادي، الخبرة والبحث العلمي، النضال الثوري، الإبداع الفني... الانتقال من التأمل إلى الممارسة >> (2) وهذا يعني أن ماركس ينتقل من المثالية التي كانت لدى هيغل (التأمل) إلى المادية (الممارسة، البراكسيس) عن طريق النضال السياسي من خلال الحزب الشيوعي ويعلمها واضحة في قوله >> إن المسألة في الحقيقة هي بالنسبة إلى المادي العملي، أي بالنسبة إلى الشيوعي، هي مسألة تشوير العالم القائم، والنضال بشكل عملي ضد الأوضاع القائمة والعمل على تغييرها >> (3)، ممّا يعني أن المعرفة أو النظرية عند ماركس ليست ترف عقلي بل هي أساس الفعل الاجتماعي الصحيح ضمن الظرف التاريخي القائم، والحقيقة أنّ العلاقة بينهما جدلية فالنظرية موجهة للفعل أو الممارسة، والفعل أو الممارسة أساس لتطور النظرية، لا شيء مكتمل وكلاهما منفتح على الآخر ضمن الظرف القائم، النظرية ترشد الممارسة والممارسة تغني النظرية وتطورها.

الممارسة عند ماركس هي شرط مهم لمعرفة صدق النموذج التصوري وصدق نسق التفسير، فالنظرية "لحظة تصورية" والممارسة "لحظة ملموسة" فالنشاط العملي هو محك صدقها، نظرية الصراع الطبقي التي تؤول إلى ثورة البروليتاريا واستلائها على الحكم وإحلال الشيوعية محل الرأسمالية هي محك صدق نموذج التصورات والتفسيرات التي صاغها ماركس في هذا المجال، ولذا عندما فشلت

(1) نفس المرجع، ص 66

(2) روجي غارودي، مرجع سابق، ص 90

(3) كارل ماركس وفرديريك إنجلز، الإيديولوجية الألمانية، تر: فؤاد أيوب، ط 1، دار الفرابي، لبنان،

2016، ص 43.42

كمونة باريس أو ثورة باريس الإشتراكية التي كان ماركس يعلق عليها كل آماله في صدق نظريته أصيب بخيبة أمل كبيرة، فالنظرية هي وعي مشكلات الواقع الاجتماعي وتحديد أشكال وألويات الممارسة لتجاوز تلك المشكلات، فالعمل جزء من النظر يسيران معاً، ومن هنا العمل محك صدق النظر وعامل تتطورها باستمرار.

II / النموذج التصوري للماركسية: يمكن أن نحدد هذا النموذج في نقاط مهمة هي مقولات أساسية داخل المنهج والفكر الماركسي والتي تعتبر أهم فروض هذه المدرسة

✓ تطور المجتمعات يقوم على مفهوم الصيرورة
✓ الحركة تتضمن التغير والتحول في إطار كلي شمولي فالواقع كلي
✓ الحركة تشمل جميع بنيات المجتمع وكل بنية لها صيرورتها الخاصة لكنها لا تنفصل في علاقتها مع غيرها

✓ فهم المجتمعات ليس مرهون فقط بالنظرية بل أيضاً بالمدخل المنهجي
✓ الجدل المادي هو الأداة المنهجية للكشف عن تغير وتطور المجتمعات
✓ الممارسة عند ماركس هي أساس المعرفة، فجمع المعطيات البحثية عن طريق المقابلات والإستبيانات والملاحظة ليست هي الأساس ولا تتيح معرفة حقيقية، وإنما الممارسة والواقع في حد ذاته هي المعرفة الحقيقية، أي الأحداث في اللحظة التاريخية لا الإنطباعات.

✓ النظرية ليست مضاف للتجربة بل مرافقة للواقع، كما أن افتراض الذات البيضاء (مصطلح خاص بالباحثة) والذي يعني الإنطلاق في البحث من ذات خالية من أية معرفة بالواقع لاكتشاف الواقع غير ممكن على مستوى الواقع نفسه، إذ لا بد من الإنطلاق من نظرية حول الواقع والتحرك بها مع الواقع لتحليله وتفسيره ومن ثم تتطور النظرية.

✓ لا شيء يأتي من العدم فلكل علة معلول، وتوجد علل أساسية وأخرى ثانوية
✓ بين العلة والمعلول تأثير متبادل ويبدلان مواقعهما باستمرار فما يكون علة في الظاهرة أ يصبح معلول في الظاهرة ب
✓ العلية لا تعني الحتمية فبعض العلل تولد ظواهر لازمة وبعضها يولد ظواهر محتملة

✓ الظواهر اللازمة تأتي من علل داخل الظاهرة ذاتها والمحتملة تأتي من علل خارجية

✓ لكل ظاهرة مضمون وشكل يؤلفان معاً وحدة واحدة الشكل يتعلق بالمضمون، لكن ليس بالضرورة أن يكون للظاهرة شكلاً واحداً لا يتغير، فالمضمون يتطلب شكلاً وفق الشرط التاريخي القائم.

✓ للمضمون تأثير على الشكل والشكل له تأثير على المضمون.

✓ إذا طابق الشكل المضمون تطورت الظاهرة وفي حالة العكس دخلتا في تضاد،
وحلُّ التضاد يختلف حسب الشرط التاريخي إما تطویر الشكل أو استبداله أو
تعديله التدريجي أو تثويره.

المدرسة الماركسية

المحور الثاني: التصور المنهجي للمدرسة

المحور الثاني: مراحل التحليل ونسق التفسير

I/ مراحل التحليل الماركسي : إن ما سبق وتناولناه كمبادئ منهجية سيظهر في هذا العرض التحليلي للمجتمعات البشرية وفق الرؤية الماركسية.

الوفاء لفكرة صاحب المدرسة بعد قرن وستة وثلاثين سنة سيكون صعبا في ظل الكم الهائل من الكتابة حول الماركسية، لقد قال ماركس في حياته محتجا على الفهم الخاطئ الذي نسجه الماركسيون الفرنسيون حول أفكاره <<أنا أعرف أمرا واحدا فقط هو أنني لست ماركسيا>> (1)، لو كانت الماركسية كمدرسة أو كفكر تمّ استعابها في زمن ماركس لما وجدنا صاحبه إنجلز يتحول بعد وفاة ماركس إلى ترجمان لفكره ومحامي دفاع عنه موضحا أنّ ماركس لم يفهم حيا وميتا، ولعل هذا ما خلق عدة ماركسيات و عدة اشتراكيات، لكننا سنركز على أهم تحليلات ماركس للمجتمع.

I/1- لا يمكن فهم التاريخ إلا ماديا فالمجتمعات تقوم على المصالح المادية ولذا فالتصور المادي للتاريخ كما يوضح إنجلز الركيزة الأساسية للماركسية يبحث عن التغيرات الاجتماعية ليس في عقول الناس ووعيمهم كما تفعل الفلسفة المثالية وإنما في تغيرات نمط الإنتاج والتبادل (2)، فالتفسير المادي للتاريخ البشري يرتكز أساسا على الشروط المادية القائمة في الطبيعة وفي وجود الانسان كالجانب البيولوجي والفيزيولوجي أو تلك التي يخلقها الانسان بفعل نشاطه كوسائل الإنتاج والنقل وغيرها، <<... فعندما ينتج البشر وسائل وجودهم فإنهم ينتجون بصورة غير مباشرة حياتهم المادية بالذات. إن الطريقة التي ينتج بها البشر وسائل وجودهم تتوقف قبل كل شيء على طبيعة وسائل الوجود التي يجدونها جاهزة والتي يجب عليهم تجديد إنتاجها>> (3)، وفق هذه الجدلية الماركسية فإن الذي يملك وسائل الوجود ويسيطر عليها هم الطبقة العليا من المجتمع كائنا ما كان اسمها (إقطاعية، برجوازية، رأسمالية) وهم في تعارض وتناقض وصراع مع من لا يملك وسائل الوجود.

I/2- الركيزة السابقة تقودنا إلى ركيزة أخرى من ركائز الماركسية التي تظهر في مقولة ماركس <<ليس وعي الناس بالذي يحدد وجودهم ولكن وجودهم الاجتماعي

(1) فردريك إنجلز، رسائل حول المادية التاريخية 1890-1894، تر: إلياس شاهين، دط، دار التقدم،

موسكو، 1980، رسالته إلى كونراد شميدت، لندن 5 أوت 1890

(2) فردريك إنجلز، الاشتراكية الطوباوية والعلم، مغفل من المترجم، ط1، دار الفرابي، لبنان، 2013، ص122

(3) كارل ماركس وفردريك إنجلز، الإيديولوجية الألمانية، مرجع سابق، ص32

هو الذي يحدد وعيهم»⁽¹⁾، وقد يجدها الطلبة في مراجع أخرى بهذه الصياغة " حركة الفكر ليست سوى انعكاسا لحركة المادة منقولة إلى دماغ الانسان و متحولة فيه " هذه الفلسفة المادية على عكس الفلسفة المثالية التي ترى أن الوجود هو انعكاس للوعي، الرؤية المادية الماركسية تقودنا إلى المقولة الشهيرة "البنية التحتية تحدد البنية الفوقية" ، والبنية التحتية هي علاقات الإنتاج التي تطابق درجة تطور قوى الإنتاج المادية⁽²⁾، وهذا يعنى أن علاقات الإنتاج هي علاقة اقتصادية تنتج عن قوى الإنتاج المادية في ظل وجود تقسيم للعمل (وسائل الإنتاج، أسلوب الإنتاج، علاقات الإنتاج)، تطور هذه القوى إلى حد معين (النقطة الحرجة) هو الذي يؤدي إلى تطور المجتمعات وتغييرها، تطور قوى الإنتاج المادية يشكل وضعا اقتصاديا جديدا يدخل في صراعات مع قوى الإنتاج القديمة _ أو الوضع الاقتصادي القديم _ يفضي إلى إحلال قاعدة اقتصادية جديدة محل القاعدة الاقتصادية القديمة.

3/I - البنية الفوقية كثيرا ما أطلق عليها ماركس نفسه الإيديولوجيا وتتمثل هذه البنية في النشاط الفكري من أفكار، وتصورات، ووعي، وقيم، وثقافة، وسياسة، وقانون، وأخلاق، وفلسفة ... فهي لا تاريخية وغير متطورة بذاتها وإنما هي نتاج تطور الحياة المادية للبشر، وبالتالي فإن الطبقة التي تسيطر على الحياة المادية هي بداهة في ظل هذا الطرح مسيطرة على روح المجتمع من ثقافة وفكر وسياسة وقانون وفن... لكن علينا أن لانقع في فخ الفهم السطحي لهذه العلاقة ونجزم أن البنية التحتية وحدها تحدد البنية الفوقية وكثير من قراء ماركس أجزموا بذلك، غير أن إنجلز يكشف صراحة زيف هذا الفهم ففي رسالة له إلى " ف.بورغيوس " يوضح أن البنية الفوقية تحدد شكل النضال السياسي والحقوقى والديني والفني والأدبي الذي بدوره يعيد صياغة البناء التحتي في علاقة جدلية مستمرة، <<ليس من الصحيح إطلاقا أن الوضع الاقتصادي وحده دون غيره هو السبب، وأنه هو وحده دون غيره الفعّال، بينما الباقي كله لا يعدو أن يكون نتيجة منفصلة، كلاً فهنا يوجد تفاعل على أساس الضرورة الاقتصادية التي تشق لنفسها دائما طريقا في آخر المطاف>>⁽³⁾، فالإنسان يصنع تاريخه لكن في ظل ظروف مادية تشترطه، تؤثر فيه وغالبا ما تحسم التغيير والتطور وهذا مانجده في الجدل المادي من وحدة الحركة وشموليتها.

4/I- الركيزة الأخرى هي الصراع الطبقي، فإن تاريخ المجتمعات منذ زمن الملكية المشاعية إلى الآن هو تاريخ صراع الطبقات أي وفق الجدل الماركسي صراع

(1) كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، تر: راشد البراوي، ط1، دار النهضة العربية، مصر، 1969، مقدمة

(2) نفس المرجع، مقدمة

(3) فردريك إنجلز، رسائل حول المادية التاريخية 1890-1894، مرجع سابق، رسالته إلى ف.بورغيوس في برسيلاو، لندن 25 يناير 1894

المتناقضات، وكل فترة تاريخية لها طبقاتها قديما نجد النبلاء والفرسان والرعايا (العامة) والعبيد، وفي القرون الوسطى الإقطاعيون والأقنان والحرفيون، وفي القرون المعاصرة البرجوازية والبروليتاريا (1) والآن منتجين ومستهلكين، أغنياء وفقراء، رأسماليين وكادحين، مهيمنين ومهيمن عليهم لكن علينا أن نفهم أن وجود الطبقات لا يعني وجود الصراع في حين وجود الصراع هو الذي يحدد وجود الطبقات، بقدر ما تنمو قوى الإنتاج تنمو الملكية الخاصة وينمو رأس المال بيد المالكين أي تحول الكمية إلى كيفية، يحصل التحول من صراع تغيير النظام القائم الذي تقوده الطبقة الكادحة أو البروليتاريا مع صراع بقاء النظام القائم الذي تقوده الرأسمالية أو الطبقة المالكة، هذا الصراع هو "مادة التاريخ" كما يخلو لإنجلز وماركس أن يسميانه، والماركسية كثيرا ما سُميت بنظرية البروليتاريا، فالشيوعية كما يقول إنجلز هي علم تحرير البروليتاريا.

الرأسمالية الاحتكارية كطبقة نشأت خلال القرن الثامن عشر بسبب التطور الصناعي الكبير من مصانع كبرى وآلات ضخمة سريعة الإنتاج التي أصبحت في يدها، حوّلت الكثير من الحرفيين والعمال اليدويين (المانيفاكشور) إلى أجراء لديها مما أدى إلى ظهور التناقضات داخل المجتمع، وهكذا برزت طبقة تملك وسائل الإنتاج من مصانع وآلات ومواد أولية هي الطبقة البرجوازية، وطبقة تبيع قوة عملها مقابل أجر يحفظ وجودها المادي وهي الطبقة البروليتارية، خلق الصراع بينهما الذي وصل في فترات تاريخية إلى التناحر (صراع المتناقضات)، والماركسية كمدرسة وكاتجاه تدور كلها حول شروط تحرير البروليتاريا وإرساء المجتمع الشيوعي الذي يقوم على نزع الملكية الخاصة ومركزتها في أيدي الدولة للوصول إلى مجتمع لا طبقي، وهنا تحصل الماركسية على حل للتناقضات أو نفي النفي بالفعل الثوري ضد الطبقة البرجوازية الحاكمة.

II / نسق التفسير الماركسي (الإغتراب نموذجاً)

التفسير الجدلي كما يقول "جاك هرمان" (2) يخصص لقانون التناقض مكان هام داخله، إنه تفسير نشوئي فهو يهتم بتشكيل الأحداث ونشأتها والبحث عن العلل الخفية التي تحدث التغيير الاجتماعي، هذا التفسير بالنسبة لهرمان وهم كبير وقعت فيه

(1) كارل ماركس وفردريك إنجلز، بيان الحزب الشيوعي، تر من الألمانية: عصام أمين، ط1، دراسة البيان الشيوعي، اليسار الثوري، مصر، 1987، ص16.15. www.elthawry.wordpress.com
(2) جاك هرمان، خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية، تر: العياشي عنصر، ط1، دار المسيرة، الأردن، 2010، ص58.56

الماركسية، فمعرفة الأساس الأولي للظواهر والمبدأ الموحد أمر غير ممكن في نظره إضافة إلى صعوبة استيعاب الكل الاجتماعي، ومهما كان رأي هرمان فوسف التفسير الجدلي وصفا نراه صحيحا بأنه نشوئي في حالة واحدة فقط وهو إنطلاق ماركس في تحليله للظاهرة من تتبع نشأتها إلى غاية تطورها من خلال تفكيكه للعلاقات اللازمة والممكنة للظاهرة، نعرض الإغتراب كمثال عن التفسير الجدلي عند ماركس.

1/II- تفسير تطور العمل من وسيلة تحرير إلى وسيلة اغتراب

عاب ماركس على الفلاسفة سعيهم الحثيث لتفسير العالم بينما الأجدر بهم في نظره هو تغيير العالم، هذا التفعيل الثوري لتاريخ البشر عُرف بأطروحة "النظرية والممارسة"، البشر يشكلون ويعيدون تشكيل حياتهم عن طريق العمل، لكن المفارقة أن العمل الذي يعتبر أهم وسيلة لتحرير الإنسان يتحول إلى أداة استلاب في ظل الرأسمالية الإحتكارية، كان الأفراد في المجتمعات الزراعية ينتجون ما يستهلكون ويستهلكون ما ينتجون، في المجتمعات الصناعية تحوّل العامل إلى سلعة تباع وتشتري، فالعامل يبيع قوة عمله للبرجوازي مقابل أجر يحفظ وجوده، لم يعد العامل ينتج قيمة إستعمالية من أجل حاجاته ولا حاجات عائلته أو قبيلته أو جماعته بل ينتج قيمة تبادلية، سلع من أجل السوق،بذا يصبح منتوجه مستقلا وغريبا عنه >>«الشيء الذي ينتجه العمل ناتج العمل يواجهه كشيء غريب، كقوة مستقلة عن المنتج» (1) هذا ما يطلق عليه ماركس "تموضع العمل" أي أن ناتج العمل أصبح مجموعة كبيرة من الموضوعات(السلع) الغريبة عن العامل كمنتج لتلك الموضوعات، و>>«كلما زاد عدد الموضوعات التي ينتجها العامل قلّ ما يستطيع أن يملكه، وزاد وقوعه تحت سيطرة ناتجه» (2) فيصبح العامل عبدا لمنتوجه(الصنمية).

2/II- تفسير اغتراب العمل

الإغتراب عند ماركس ليس فقط اغتراب عن منتج العمل بل أيضا اغتراب العمل في حد ذاته كفعل إنتاج أي أن العامل >>«... لا يؤكد ذاته في العمل وإنما ينكرها، لا يشعر بالإرتياح بل بالتعاسة، لا ينمي بحرية طاقته البدنية والذهنية وإنما يقتل جسده ويدمر ذهنه، ومن هنا فإن العامل إنما يشعر بنفسه خارج العمل، وهو في العمل يشعر بأنه خارج نفسه» (3)، يتأتى هذا من العمل الذي تكون غايته تلبية

(1) كارل ماركس، مخطوطات 1844، تر: محمد مستجير مصطفى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، دت، ص 69

(2) نفس المرجع ونفس الصفحة

(3) نفس المرجع، ص 71

ضروريات الحياة المادية كما هو الشأن في المجتمعات الرأسمالية، فهو ذا طبيعة خارجية عن الذات وليس صادر عنها، في حين يُفترض أن يكون العمل البشري مجال إرادة ووعي للإنسان ككائن نوعي يعيد إنتاج الحياة وليس وجوده الفردي على عكس الحيوان نشاطه هو وجوده الأساسي، في ظل الرأسمالية الإحتكارية تحوّل العمل إلى إعادة إنتاج الوجود الفردي بدل الوجود الكلي(النوعي) فصنع حالة إغتراب الإنسان عن إنسانيته.

هذا الإغتراب في العمل وفق ماركس هو واقع حال الملكية الخاصة التي تفرز علاقات إنتاج غير متوازنة تؤدي إلى ظهور طبقتين متصارعتين، المالكة لوسائل الإنتاج(البرجوازية) والتي لا تملك سوى قوة عملها(البروليتاريا)، فالعمل من جهة هو سبب وجود الملكية الخاصة وفي نفس الوقت ناتج عنها(قانون وحدة المتناقضات)، فتحرر المجتمعات من الملكية الخاصة يعني تحرر العمال من الإغتراب، والتحرر من الملكية الخاصة يكون بتضافر عوامل التناقض المتراكمة داخل الرأسمالية والممارسة الثورية، والتحرر الثوري لا تحين لحظته إلى بمزيد من التناقضات داخل الرأسمالية كلما تطورت قوى الإنتاج أكثر ظهر الصراع الطبقي أجلي(تحول الكمية إلى كيفية).

3/II- الممارسة نظرية للتحرر

تثوير الوضع هو تسريع من خارج الظاهرة أو تفعيل أسباب خارجية لعملية التحول من الكم إلى الكيف، من الإغتراب والإستلاب إلى التحرر والإنعتاق، بفعل التثوير تتحول الظاهرة المحتملة (التحرر والإنعتاق) إلى ظاهرة لازمة واقعة (فقد رأينا من قبل مفهوم العطل المحتملة الخارجة عن الظاهرة والعطل اللازمة الكامنة في الظاهرة)، ففي صراع الطبقة العاملة مع الطبقة المالكة تتولد التناقضات وتنمو كميًا حتى تصل إلى النقطة الحرجة وهي اغتراب الإنسان عن إنسانيته إلى الدرجة التي تتساوي فيها حاجاته مع حاجات الحيوان الوجودية، هذا يؤدي إلى قفزة نابغة من داخل الظاهرة ذاتها كما شرحنا لكن بتضافر عامل خارجي هو الثورة.

هكذا يحلل ويفسر ماركس الإغتراب وفق المنهج الجدلي، فهو ينظر إلى العلاقات الاجتماعية والإنسانية في شموليتها وترابطها، فالعمل في المجتمعات السلعية أو الاستهلاكية يصبح رقم كمي عددي حسابي في عالم الرأسمال، فالعمل الذي كان فعل اجتماعي تضامني تحول إلى قوة عمل تنتج السلع، فتحوّلت بذلك العلاقات الإنسانية إلى علاقات سلعية، ويصبح الإنسان الذي ينتج السلع عبداً للسلع، فالمنهج الجدلي عند ماركس هو إعادة تركيب للواقع من خلال البحث عن العلاقات المنطقية الأساسية داخل هذا الواقع وليس داخل الوعي، فحقيقة الظاهرة ليس تعريف مجرد ولا تعريف إنتقائي وإنما هي صيرورة تشكل الظاهرة إنطلاقاً من التناقض إلى صراع التناقض إلى إزالة التناقض الذي قد يكون تلقائي وقد يفعل بعلة خارجية.

III / الإنتقادات الموجهة للماركسية (نقولها دائما النقد هو تنظير جديد يحتاج إلى فسحة كتابة كبيرة لذا نعرض باختصار الأهم):

- فسّر ماركس مسار التاريخ كحتمية مبنية على أسس اقتصادية، فالرأسمالية تحمل بذور فنائها بسبب التناقضات التي تزداد داخلها كلما تطورت وسائل الإنتاج، يحتدم الصراع بين الطبقة الرأسمالية والطبقة الكادحة يؤدي إلى نضج الوعي الطبقي لدى البروليتاريا فتثور على علاقات الإنتاج القائمة وتتحرر من الاستغلال، تلغي الملكية الخاصة ويتحرر الإنسان، دون مناقشة الفكرة على مستوى الواقع فشلت الشيوعية في تحقيق نبوءة ماركس بوجود مجتمع المساوات الخالي من الاستغلال فتحوّلت إلى أعتى ديكتاتوريات العصر الحديث.

- ماركس يرى أن الجدل موجود في كل شيء وصراع المتناقضات يمس الأشياء جميعها، ممّا يعني أن الماركسية ذاتها كفكر تحمل بذور فنائها ليحل محلها فكر نقيض، وكذلك الشيوعية تحمل بذور فنائها ليحل محلها تاريخ ومجتمعات أخرى نقيضها ومع ذلك اعتقد ماركس أن المجتمع الشيوعي مجتمع نهاية الصراع، وكأن قوانين الجدل تتوقف عن العمل بمجرد أن تتحقق الشيوعية، لكن إذا تتبعنا فكرة صراع المتناقضات تزول الشيوعية حتما لتحل محلها مرة أخرى الملكية الخاصة ونبقى ندور في حلقة مفرغة.

- كما أنه لو طبقنا قوانين الجدل على الرأسمالية فهي تحمل بذور فنائها من داخلها بفعل الثورة البروليتارية الحتمية، ومع ذلك يدفع ماركس بذلك الفناء بفعل خارجي ألا وهو تفعيل الوعي لدى الطبقة الكادحة بالفعل النضالي السياسي.

- إرتبطت الماركسية بالطابع الإيديولوجي عندما تحوّلت إلى حركة سياسية في صورة العصبة الشيوعية، وأصبحت الكثير من كتابات ماركس نضال سياسي بدل أن تكون تحليل علمي.

- الماركسية أعلت كثيرا من شأن الشرط الاقتصادي في تفسيرها لتاريخ تغير المجتمعات وهو شرط مادي على حساب الشرط الإنساني، وجعلت في نفس الوقت الشرط الاقتصادي عامل استلاب لإنسانية الإنسان.

- بنى ماركس نظريته على نقده الاقتصادي لكنه كما يقول كارل بوبر لم يقدم العون في الشأن الاقتصادي عمليا، فبقيت إشتراكيته طوباوية مزيج من الشعارات والنبوءات التاريخية، فكانت منهجه فقيرا بالقدر الذي لم يقدم فيه -رغم التزامه فكرة الممارسة- واقع عملي يخبر بكيفية بناء اقتصاد اشتراكي ومؤسسات اشتراكية (1).

(1) كارل بوبر، المجتمع المفتوح وأعداؤه، تر: حسام نايل، ط1، التنوير للطباعة والنشر، لبنان-مصر-تونس، 2015، ص133.135

- يقول بوبر اعتقاد ماركس أن المستقبل متداخل في الماضي قاده إلى تبني اعتقاد خاطئ مفاده أنّ المنهج العلمي الصارم يتأسس على حتمية صارمة (1).
- الماركسية خصوصاً بعد ماركس ليست فكراً متجانساً موحداً لقد تحوّلت إلى عدّة ماركسيات مختلفة (2).

ملخص عن المدرسة الماركسية

عرفنا في الشق الأول من المدرسة الماركسية أنها جاءت وليدة لحظة تاريخية في تطور المعرفة، إذ نشأت في فترة ازدهرت فيها الصناعة على إثر ازدهار المعرفة التجريبية التي قدّمت الكثير من التقدم التقني والصناعي للبشرية، بظهور الصناعة ظهرت الرأسمالية على أنقاض الإقطاع الذي حوّل الفلاحين إلى أقنان وعبيد، ليتحوّلوا مع الرأسمالية إلى أجراء كادحين لدى أرباب الرأسمالية مع ظهور مفهوم العمل بأجر، إذن طبقة مالكة لوسائل الإنتاج تحقق من خلال استغلال قوى الإنتاج التي يعتبر العمال جزء منها فائض القيمة الذي يصنع رأسماليتها واحتكارها لمظاهر القوة المادية، وطبقة كادحة لا تملك إلاّ جهودها أو ما يسميه ماركس قوّة عملها، طبقتين متصارعتين عبر التاريخ الطويل، الأولى تستهدف الإبقاء على هيمنتها، والأخرى تستهدف التحرر والإنعتاق من فقرها وهشاشتها، ماركس اختار أن يكون إلى جانب طبقة الكادحين لأنه بذلك سيكون إلى جانب صيرورة التاريخ، فالتاريخ البشري من منظوره تحكمه قوانين الجدل المادي الذي يعتبر صراع المتناقضات من

(1) نفس المرجع: ص 136

(2) توم بوتومور، مرجع سابق، ص 109

أهمّ قوانينه، سيحدث وفق تلك القوانين أن تتناحر الطبقتان حتى تلغي إحداهما الأخرى، لكن من المؤكد لدى ماركس أن الرأسمالية تحمل بذور فنائها داخلها لما تحمله من تناقضات تؤدي حتماً إلى زوالها، والمستقبل كل المستقبل لطبقة البروليتاريا التي ستقيم نظامها الشيوعي الذي سيقضي على الملكية الخاصة فيقضي بذلك على الصراعات والتناقضات،

هل كانت تلك مجرد أحلام يتوهمها راودت ماركس، مخيالنا تحكمه تصوراتنا للكون والعالم من حولنا وبطبيعة الحال ماركس المادي كان يعتقد جازماً في أفكاره حول حركة التاريخ وصيرورته، وذلك ما رأيناه في الشق الثاني من المدرسة حيث عرضنا التصورات المعرفية التي بنى ماركس وأتباعه نظرتهم لتاريخ البشرية من خلالها، والتي أيضاً قامت عليها قواعدهم المنهجية ونموذج تحليلهم ونسق تفسيرهم، والآن بعد أن سقطت الشيوعية القرن الماضي وسال حبر كثير في نقد الماركسية، يبق المنهج الديالكتيكي مع ذلك من المناهج التي تستحق الدراسة والبحث، خاصة مع أبنائنا الطلبة الذين يعتقدون أنه لا يوجد سوى طريق واحد للمعرفة والبحث هو الإستبيان أو المقابلة بالرغم من كونهما تقنيتان لا أقل ولا أكثر، فالوسيلة لا تحدد المنهج بل المنهج وموضوع البحث هما اللذان يحددان الوسيلة، فماركس كانت مادته البحثية التاريخ البشري المحفوظ في التقارير والكتب والأبحاث، وأيضاً الممارسة العملية في الحياة الاجتماعية من خلال نضاله اليومي والسياسي والثوري مع الطبقة البروليتارية كتجارب حية معاشة، مستخدماً المادية الجدلية لتفسير تطور المجتمعات وتغيّرها عبر التاريخ، ونجد الآن من أقطاب المدرسة الإسلامية من يجد في قوانين الجدل مادة بحثية هامة في تاريخ البشرية بعد تعديل تصحيحي لتلك القوانين.

مراجع المدرسة الماركسية:

- 1- إيسيا برلين، كارل ماركس، تر: عبد الكريم أحمد، دط، دار القلم، القاهرة، دت
 - 2- توم بوتومور، نقد علم الاجتماع الماركسي، تر: محمد علي محمد & علي عبد الرزاق جبلي، دط، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1984
 - 3- جاك هرمان، خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية، تر: العياشي عنصر، ط1، دار المسيرة، الأردن، 2010
 - 4- روجي غارودي، كارل ماركس، تر: جورج طرابيشي، ط1، دار الآداب، لبنان، 1970
 - 5- سلامة كيلة، ما الماركسية تفكيك العقل الأحادي، روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، دت
 - 6- فاسيلي بودوستنيك & أوفشي ياخوت، ألف باء المادية الجدلية، تر: جورج طرابيشي، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1979
 - 7- فردريك إنجلز، الاشتراكية الطوباوية والعلم، مغفل من المترجم، ط1، دار الفرابي، لبنان، 2013
 - 8- فردريك إنجلز، رسائل حول المادية التاريخية 1890-1894، تر: إلياس شاهين، دط، دار التقدم، موسكو، 1980
 - 9- فردريك إنجلز، ضد دوهرينغ، تر: محمد الجندي & خيرى الضامن، دط، دار التقدم، موسكو، دت
 - 10- كارل بوبر، المجتمع المفتوح وأعداؤه، تر: حسام نايل، ط1، التنوير للطباعة والنشر، لبنان-مصر-تونس، 2015
 - 11- كارل ماركس، مخطوطات 1844، تر: محمد مستجير مصطفى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، دت
 - 12- كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، تر: راشد البراوي، ط1، دار النهضة العربية، مصر، 1969
 - 13- كارل ماركس & فردريك إنجلز، الإيديولوجية الألمانية، تر: فؤاد أيوب، ط1، دار الفرابي، لبنان، 2016
 - 14- كارل ماركس & فردريك إنجلز، بيان الحزب الشيوعي، تر من الألمانية: عصام أمين، ط1، دراسة البيان الشيوعي، اليسار الثوري، مصر، 1987
- www.elthawry.wordpress.com
- 15- Louis Althusser, Idéologie et appareils idéologiques d'État (Notes pour une recherche),
<http://www.urbanlab.org/articles/ideology/Althusser%201970%20%20ideologie%20et%20appareils%20ideologiques%20d'etat.pdf>

المدرسة البنيوية المحور الأول: النشأة، التاريخ، والرواد

أهداف الدرس المتعلق بالمدرسة البنيوية:

قلنا عن المدرسة الماركسية أنها عرفت عدّة ماركسيات خاصة بعد وفاة مؤسسها كارل ماركس، وبالرغم من ذلك بقيت الأسس التي قامت عليها ماركسية ماركس واضحة المعالم، لكن البنيوية عرفت عدة بنيويات في الكثير من التخصصات حتى في البيولوجيا، وحتى في التخصص الواحد هناك صعوبة في القبض على المقاربة البنيوية بوضوح، ولعل هذا ما جعل البعض يصفها بأنها مدرسة فكرية دون مفكرين، ومن جهة أخرى بعض الباحثين يضعون ضمن تيار البنيوية كل من كتب عن البنية وكل من يجعل اللاوعي واللاشعور من مبادئ التحليل لديه، هذا ليس انتقادا وإنما توصيف لواقع، فالباحثة شخصيا تجد أن ما بين النسقوية والبنيوية والوضعية خيط رفيع جدا إذا ما أخذنا بالتوجه العام والأساسي للمقاربات، فجميعها تضع الفرد تحت تشريط البنيات والأنساق والمجتمع، فالفرد حصاد البنية مما يفتح مجال الجدل حول قبلية المجتمع والبنية على الفرد، هذا الجدل الذي لم يغلق إلى الآن ولا نعتقد سيغلق في الوقت القريب حتى في ظل المقاربات الديناميكية ومقاربة الانعكاسية الاجتماعية أو إعادة التشكيل البنائي، خاصة في ظل العولمة التي أصبحت تلقي بثقلها كبنية كونية، غير أنّ الشيء الأكيد بالنسبة للباحثة أن البنيوية مدرسة مكتوبة في تاريخ الفكر الفرنسي، والشيء الأكثر تأكيدا أن المنهج البنيوي قدّم للعلوم الإنسانية والاجتماعية زاوية نظر مهمة جدا لا يمكن تجاوزها إلى حدّ اللحظة هذه الزاوية هي البنية، والطلبة في العلوم الاجتماعية مطالبين بفهمها سواء اتجهوا نحو علم النفس أو علم الاجتماع إذ لا شيء موجود في فراغ، فالنفس لا توجد في فراغ وكذلك المؤسسات الاجتماعية.

I/تعريف البنية:

I/1 البنية لغة: من الفعل بنى ويقال أيضا ابنتى، بنى يبني بُنيًا وبناء وبنينا وبنية وبنائية، والبناء المبني وجمعه أبنية وأبنيات، والبنية تقال في المعاني كالتصورات

والمفاهيم، والبنية تقال في المحسوسات كالأجسام والمشخصات، وكلاهما معناه ما بَيَّنَّه وجمعها البنى والبنى (1) ولها معان أخرى نستغني عنها لعدم أهميتها للمحاضرة، ، غير أن ما نعتقده نحن من خلال مجموعة الدلالات التي اطلعنا عليها في مختلف المعاجم اللغوية العربية أن البناء الأشياء المبنية اللازمة لمكانها لا تتغير وأغلبها في المحسوسات ويقابلها في الفرنسية والإنجليزية Construction، والبنى تتغير وتتطور وهي في المجردات ويقابلها في الفرنسية والإنجليزية structure، وكلاهما البنية أو البناء يعني البنين والتشييد والعمارة في المحسوسات والمجردات، وكلاهما يعني الشيء الذي يتكون من مجموعة أجزاء وعناصر متلاحمة فيما بينها مشكلة كلية لا يمكن اختزالها إلى العناصر المشكلة لها فالمنزل أو المدرسة لا يمكن تعريفها بأنها مجموعة من الآجر والإسمنت والرمل والماء والحديد وغيرها من المحسوسات، وكذلك المجد والعز والشرف في المعنويات أو المجردات.

2/I البنية اصطلاحاً structure بالفرنسية، structura باللاتينية: هناك اختلاف مفاهيمي بين العلماء والباحثين لن نخوضه فقد خاضه "جان بياجى" Jean Piaget (2) من قبل بعمق وحاول استخراج نقطة التلاقي بين جملة الاختلافات وتوصل إلى أن الميزات المشتركة للبنية هي الكلية أو الجملة وهي تشكلها من مجموعة عناصر ليست تراكمية وإنما هي جملة Totalité مغايرة لخصائص العناصر المشكلة لها تميزها كمجموعة واحدة فالمجتمع بنية تتكون من عدة عناصر، أفراد، مؤسسات، قيم، نظم.... وهو في كليته مغاير لخصائص هاته العناصر المشكلة له، والمؤسسة المدرسية مثلا بنية تتشكل من التلاميذ، الأساتذة، الإدارة، المناهج، الأبنية، المنظومة التعليمية... وهي في كليتها تختلف عن العناصر المشكلة لها منفردة.

3/I خصائص البنية:

أ/ الكلية أو الجملة Totalité: بمعنى أنها نسق من العناصر المترابطة كل تغير يحدث في عنصر من عناصرها يؤدي إلى تحويل في البنية ككل، فالبنية ليست ذات، ولا موضوع، ولا تاريخ، ولا تجربة، ولا انعكاس للواقع، وإنما هي مجموع الروابط والعلاقات التي يكتشفها الفكر ويقوم بتجريدها ليصل إلى البنية المجردة في معزل عن تاريخيتها ووظائفها ومضمونها وعوامل نشأتها وتشكلها.

(1) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005، ص1264

(2) جان بياجى، البنوية، تر: عارف منيمه وبشير أوبري، ط4، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1985، ص14.7

ب/ التحولات Transformations: البنية ليست سكونية متكلسة أو متجمدة وإنما هي متحوّلة ومتغيرة من الداخل لتحافظ على وجودها وديمومتها وديناميبتها، كتحوّل بنية القرية إلى بنية مدينة، أو كتحوّل المدينة إلى Metropolitan ميتروبول.

ج/ الضبط الذاتي L'auto-régulation: وهي قدرة البنية على ضبط نفسها والإنغلاق على ذاتها حتى لا تؤدي التحويلات الحاصلة لها إلى ظهور عناصر خارجة عنها، وإنما تولّد عناصر تنتمي إلى البنية وقوانينها وطريقة نموها وتطورها، وهذا لا يعني أبداً أنّ البنية لا تستطيع أن تدخل في علاقات مع بنى أخرى كبنية فرعية ضمن بنية أوسع، مثل المناهج الدراسية كبنية فرعية في علاقتها ببنية التعليم كبنية أوسع.

II / تعريف المدرسة البنوية:

علينا أن نزيل الإلتباس الحاصل لدى الطلبة بين كلمة بنوية وبنائية، على المستوى اللغوي الدلالة عينها يحملها كلا اللفظين في العربية، لكن اللغة الفرنسية البنوية structuralisme من structure أي البنية والبنائية constructivisme من construction أي البناء، لكن على المستوى الإصطلاحي حدث تطور للمفهوم أثناء تجوّله بين التخصصات العلمية المختلفة.

أ- البنائية constructivisme: ارتبطت بعلم النفس المعرفي خاصة وعلوم التربية وبنظريات التعلم، والسوسولوجيون البنائيون هم الذين ينظرون إلى الواقع الاجتماعي كبناء من خلال المعرفة والوعي والإدراك، والبعض يعتبرها منهج بحث يضم مختلف الأعمال والبحوث الاجتماعية التي تنظر إلى الوقائع الاجتماعية ليس كحقائق في ذاتها (شيئية الظاهرة) وإنما من خلال طريقة تصميم الفاعلين الاجتماعيين أفراد وجماعات للبناءات الاجتماعية ضمن الوضع الاجتماعي (1) من خلال التمثلات التي يبنونها الإدراك حول الواقع.

علوم التربية ونظريات التعلم يعتبرونها نظرية للمعرفة، فالمعرفة بناء يتدرج مع تدرج النضج الفزيولوجي أو البيولوجي منذ الطفولة الأولى، والمعرفة في نظريات التعلم تبنى على يد المتعلم بشكل ديناميكي ولا يتلقاها بشكل سلبي من الخارج، فالأفراد يبنون معرفتهم من خلال معتقداتهم ومن خلال تمثلاتهم وعلاقتهم بالبيئة الاجتماعية المحيطة بهم، ومن هذا المنطلق أصبح التعليم الفعّال هو الذي يحفّز المتعلم على بناء ارتباطات داخلية بين المفاهيم والتصورات وارتباطات خارجية مع

(1) Philippe Riutort, Les sociologies constructivistes La double dimension du social, in Précis de sociologie, 3^e éd, Collection Major, PUF, France, 2014, p221.262

<http://download1133.mediafire.com/q7xiexcoegg/vbcfca6dob7ewqn/Pre%CC%81cis+de+sociologie.pdf>

الواقع، وبناء ارتباطات بين المعارف السابقة والمعارف الجديدة، وتحفيز عقول المتعلمين على بناء خرائط ذهنية تسهّل عملية التعلّم وبناء المعرفة.

ب- **البنوية structuralisme**: ارتبطت بعلم اللغة والأنثروبولوجيا وعلم النفس المعرفي والمهتمين بالتحليل الثقافي في علم الاجتماع وبدراسة الأنساق الاجتماعية، فالبنية هي نظام رمزي لا شعوري يظهر في منطوق ومعاني الكلام المتضمنة في الدلالات الثقافية (1)، وهذا يظهر أنّها تنكئ على البنوية اللسانية ولذا فإن أغلب تحليلاتها وتفسيراتها تعتمد على تحليل اللغة والكلام والذي يطلق عليه علم الدلالة (السيمائية) أو ما يطلق عليه علماء الاجتماع عملية التشفير أو الترميز، وقد استخدم علماء النفس البنوية في تحليل زلات اللسان وأخطاء الكلام وتحليل اللاشعور الذي يظهر من خلال منطوقات الكلام، وتحليل الأساطير كما فعل فرويد، وهي أيضا الدراسات السوسولوجية التي تهتم بالبنيات كأنساق اجتماعية وتحلل العلاقات داخلها وبينها وبين غيرها من البنيات الأخرى من بيئتها الخارجية، أمّا المهتمين بالتحليل الثقافي والأنثروبولوجي فاهتموا بدراسة الموروثات الثقافية والشعبية بمختلف أشكالها كالأساطير والأمثال والمعتقدات... وتحليل دلالاتها الرمزية الثقافية.

ج- دلالات مختلفة للبنوية:

الكثير من علماء الاجتماع تناولوا البنية ك structure مثل تالكوت بارسونز، بيير بورديو، أنتوني جيندز، مارسيل ماوس، ميشال فوكو، ليفي شتراوس، بيار أنصار، إحسان محمد الحسن، أكرم حجازي... والتوليد اللفظي في الفرنسية من بنية structure هو لفظ بنوية structuralisme وهي تدرس البنى وتحولاتها وعلاقاتها وترايباتها، بعض الترجمات التي وصلتنا تكتب بنائية بنفس معنى بنوية، غير أنّ البناء ك construction نجده كما قلنا في البحوث التربوية وبالأخص نظريات التعلّم التي جاءت رافضة للنظرية السلوكية، وقد عرّفها المعجم الدولي للتربية نقلا عن الأستاذين زيتون بأنها <<رؤية في نظرية التعلّم ونمو الطفل، قوامها أن الطفل يكون نشطا في بناء أنماط التفكير لديه>> (2)، وهذا يعني أنّ البنائية تبحث في عمليات التعلّم والمعرفة لدى الإنسان وكيف يكتسبها وكيف يبنيها، وفي طريقة بناء الواقع الاجتماعي لدى الأفراد أو كيف تتشكّل المعرفة بالواقع الاجتماعي لديهم، لكن

(1) جاك هارمان، خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية، تر: العياشي عنصر، ط1، دار المسيرة، عمان، 2010، ص107.102

(2) حسن حسين زيتون وكمال عبد الحميد زيتون، البنائية منظور إبستمولوجي وتربوي، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1992، ص1

البنيوية هي نظرية حول الأنساق والعلاقات بين عناصر النسق، والتحويلات التي تطرأ عليه.

ظهرت مصطلحات أخرى من نفس السلالة المفاهيمية تأتي في العلوم الاجتماعية بمعنى بناء الواقع وإعادة تشكيله لكن في ظل بنى معطاة مسبقا وهذا يظهر المزاوجة بين البنيوية والبنائية، أيضا هناك مزاوجة بين الفعل والبناء دفع إلى ظهور مفهوم جديد وهو المقاربة البنائية l'approche structurationniste لدى جيدنز والتي يطلق عليها أيضا نظرية التشكيل البنائي التي تنظر إلى الأفراد كفاعلين في بناء المجتمع وليسوا سلبيين يخضعون لقهره كما هو الأمر مع دوركايم، فالفواعل الاجتماعيين يتأثرون بالبنى المعطاة مسبقا لكنهم في نفس الوقت يساهمون في إعادة صناعتها وتشكيلها.

عند بورديو أيضا نجد مقاربة مشابهة إذ يستخدم مفهوم بنى مُبْنِيَّة Structures Structurées وهي المعطاة سلفا والتي يخضع لها الأفراد، ومفهوم البنى البنائية Structures Structurants التي تنتج من الممارسات الذاتية للفرد (1) وهذه مزاوجة واضحة بين البنائية (الممارسة الذاتية للأفراد) والبنيوية (البنى المعطاة سلفا) كما رأيناها سابقا مع جيدنز، لعنا نثقل كاهل الطلبة بهذه المعلومات لكن نرى أنه من المهم أن يعرفوا مدى ضرورة تحديد المفاهيم، خاصة هذه المدرسة التي عرفت تنوع الدلالات بسبب وجودها في مختلف التخصصات حتى في الرياضيات والبيولوجيا، وبسبب اختلافاتها حتى داخل نفس التخصص.

د- موقف الباحثة:

هناك اختلاف في ترجمة مفهوم structuralisme إلى العربية فعند البعض بنيوية، عند آخرين بُنيوية، وبنائية، عندنا في الجزائر بنائية، عند إحسان محمد الحسن وأكرم حجازي مثلا هي بنيوية، الترجمة من الفرنسية سهل فهناك فرق واضح بين بناء construction وبنية structure وفي الإنجليزية البناء structure وأيضا constructing والبنية structure وأيضا construction، فالترجمة من الإنجليزية أصعب ولسنا خبراء لغة على أية حال، لكن الشيء الذي لا اختلاف حوله هو أن البنيوية تدرس الظواهر الاجتماعية أو اللغوية أو البيولوجية كنسق من العناصر المترابطة التي تشكل كلية تختلف عن خصائص العناصر المشكلة لها، فالبنيوية تنظر إلى البنيات كوجود موضوعي مستقل عن وعي الأفراد، بينما البنائية في منظورنا نحن هي التي تدرس طرق تشكّل معرفتنا بالواقع الاجتماعي، أو طريقة تشييد أذهاننا للواقع الاجتماعي سواء كان واقع ديني أو قيمي أو فني، أو سياسي.... أو بتعبير آخر دراسة الواقع الاجتماعي كما هو متشكّل داخل الوعي الفردي أو الجماعي كما فعل كل من "بيتر

(1) Pierre Bourdieu, Le Sens Pratique, Paris, les éd de Minuit, 1980, p88.89

بيرجر "و"توماس لوكمان" وهي أطروحة تدخل في حقل علم اجتماع المعرفة، في حين آخرون مثل عالم الاجتماع أنتوني جيدنز أخذ بكلتا المقاربتين وسمى البعض أطروحته الأبنائية في حين يطلق عليها هو نظرية التشكيل البنائي *théorie de la structuration*، إذ يدرس كيف تمارس البنى جانبها القهري على الأفراد والجماعات، وكيف يقوم الأفراد والجماعات رغم ذلك بتمثّل تلك البنيات وإعادة تشكيل الواقع الاجتماعي بصورة ليست فوتوغرافية وإنما معدّلة ومغيّرة، فالإنسان صانع تاريخ وليس حامل تاريخ فقط، بيير بورديو أيضا عالم اجتماع توليفي وسميت مقاربتة البنوية التكوينية ويطلق عليها بعض الفرنسيين البنائية البنوية *constructivisme* *structuraliste*، يدرس بورديو كيف تمارس البنيات قهرها على الأفراد والجماعات (مفهوم الحقول)، وكيف يتمثّل الأفراد والجماعات البنيات (مفهوم الهابتوس) ثمّ يعيدون إنتاجها كثقافة وذوق وأسلوب حياة، فالباحثة ترى أنّ الصواب استخدام البنوية كمرادف لـ *structuralisme* وليس البنائية كمقاربة تدرس نشأة وتطور البنيات، أما البنائية كمرادف لـ *constructivisme* فهي مقاربة في نظرية المعرفة تدرس طريقة بناء المعرفة، كما أنها مقاربة تدرس طريقة تمثّل الفاعلون الاجتماعيون للواقع الاجتماعي وإعادة تشييده.

و- تعريف البنوية في هذه المحاضرة:

نحن سندرس البنوية كما هو موجود في مقرر المقياس، ونعرفها كما عرفها ليونارد جاكسون في معناها الواسع بأنها مدرسة فكرية تُعنى >> بدراسة ظواهر مختلفة كالمجتمعات، والعقول، واللغات، والأساطير، بوصف كل منها نظاما تاما، أو كلا مترابطا، أي بوصفها بنى، فتتم دراستها من حيث أنساق ترابطها الداخلية، لا من حيث هي مجموعات من الوحدات أو العناصر المنعزلة ولا من حيث تعاقبها التاريخي << (1)، فكل مجموعة من العناصر المترابطة تشكل بنية ليس فقط كوجود مادي مدرسة، مصنع، جسم، ولكن أيضا كوجود تجريدي قيم، ثقافة، لغة، مناهج، تعليم، دين... فالبنية إذن هي الروابط في حد ذاتها، أو كما يقول ليفي شتراوس هي مضمون الرابطة ذاتها مدركا في كليته وليس في شكلها فقط، لذا نقول في علم النفس مثلا بنية الشخصية أو بنية الذات، وفي علم الاجتماع بنية الأسرة أو بنية المنظمة، وهي مدرسة جاءت رافضة للنزعة التاريخية والتجريبية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهي منهج بحث في العلاقات والترابطات النسقية للعناصر التي تشكل البنية، ودراسة قواعد بنائها واستقرارها وتحولها.

III/ تاريخ ونشأة المدرسة البنوية

(1) ليونارد جاكسون، بؤس البنوية الأدب والنظرية البنوية، تر: ثائر ديب، ط2، دار الفرقد، سوريا، 2008، ص51

أ/ **البنيوية الشكلانية**: ظهر مصطلح بنية على يد الأديب والناقد الروسي يوري تيتانوف Yury Tynyanov، وأول ما ظهر مفهوم بنيوية كان في مجال اللغة على يد عالم اللسانيات الروسي "رومان جاكوبسون" Roman Jakobson سنة 1928، وكانوا يهتمون بشكل البنية أي شكل النص الأدبي لذا سميت بالمدرسة الشكلانية.

ب/ **البنيوية اللسانية**: تأثرت المدرسة الشكلانية بعالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure هذا الأخير الذي يعتبر أول من أسس المدرسة البنيوية في علم اللغة من خلال كتابه محاضرات (أو دروس) في الألسنية العامة (1) سنة 1916 لكن لم يستخدم مصطلح بنية وإنما نسق ومنظومة، درس سوسور اللغة دراسة بنيوية، أي دراسة اللغة وحدها واتخاذها قاعدة للحكم على جميع مظاهر الكلام الأخرى (أدبي، فردي، اجتماعي، فزيولوجي...) فاللغة ظاهرة اجتماعية والكلام مسألة فردية* إذ اهتم بوصف البنية اللغوية وعلاقة الدوال بالمدلولات.

ج/ **البنيوية الأنثروبولوجية والاجتماعية**: إزدهرت البنيوية في فرنسا نهاية خمسينيات القرن الماضي على يد كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss الذي يعتبر من أهم المنظرين لها، ومن أهم من ساهم في انتشارها ونقلها من اللغة واللسانيات إلى الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلوم أخرى، حيث أصبح المجتمع وبناءاته الفرعية والأدوار البنيوية محط دراسة الكثيرين أمثال مارسيل ماوس وميشال فوكو في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وكولدن ويزر في علم النفس الاجتماعي حيث اهتم بتحليل الطوطمية، وجان لاكان في علم النفس الذي اعتمد في تحليلاته النفسية على اللغة والبحث في علاقة الدال بالمدلول.

د/ **البنيوية والنسقية Systémisme**:

علينا أن نعرف أن تناول فكرة الترابطات بين العناصر المكونة للظواهر ليس وليد البنيوية، فمفهوم النسق ومفهوم النظام هو مفهوم للترابطات ولذا نجد "حسن محمد الحسن" يعتبر أوغوست كونت ودوركايم مفكرين وضعيين وبنيويين لأنهم تحدثوا عن الأنساق الاجتماعية كمجموعة من البنى المترابطة والمتساندة (2)، وأصبح الحديث عن البنى الاجتماعية والنفسية والبايولوجية رائجا حيث يتم تحليل ودراسة عناصر البنية وأيضا علاقة البنى المختلفة ببعضها، والبحث عن القواعد التي تحكم تلك العلاقات وتحكم حالة التحولات التي تنتج وتعيد إنتاج البنى، فمن

(1) نفس المرجع، ص47

* يمكن العودة إلى فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تر: طالح القرماطي وآخرون، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1985، الباب الثاني والثالث

(2) إحسان محمد الحسن، النظريات الاجتماعية المتقدمة دراسة تحليلية في النظريات الاجتماعية المعاصرة، ط3، دار وائل، عمان، 2015 ص32

تحليل الطبقات الاجتماعية المتصارعة وتحليل الظواهر الاجتماعية كأشياء إلى تحليل البنيات الاجتماعية، إلى أن جاءت المدرسة التفكيكية التي يتزعمها جاك دريدا فبدأ نجم البنوية يأفل تدريجياً ابتداءً من سبعينيات القرن العشرين، وظهر قصورها في تفسير الظواهر نفس القصور الذي نجده في الوظيفية فيما بعد فإما بنى صماء أو وظائف تسبح في السماء، مما دعى إلى تشكيل رؤية جديدة من خلال المزوجة بين المقاربتين التي أصبحت تُعرف بالبنائية الوظيفية أو البنوية الوظيفية، وأيضاً ظهور البنوية التكوينية أو التركيبية تلك المزوجة بين البنوية والماركسية، والأبنائية أو ما يطلق عليها صاحبها "جيدنز" نظرية التشكّل البنائي تلك المزوجة بين الفعلانية والبنوية والتي تعطي للذات الفاعلة قيمة كبيرة في تشكيل وإعادة تشكيل البنى بنفس القدر التي تؤثر فيه البنى على الفاعلين الاجتماعيين، وكلها مقاربات تجاوزية للبنوية والتي سميت مابعد البنوية Post-Structuralisme.

IV / أهمّ رواد المدرسة البنوية:

■ جان بياجيه (1896-1980) Jean Piaget:

عالم نفس وفيلسوف سويسري، إهتم بالبحث في نظرية المعرفة فأنشأ مركز نظرية المعرفة في جنيف، وكتب الكثير من البحوث حول تطور المعرفة لدى الأطفال، يعتبره الكثيرون من رواد المدرسة البنوية في علم النفس، يعتبر بياجيه البنية نسق محكوم بقوانين تنطبق على جملة النسق وليس على عناصره فقط، ميزة هذه القوانين أنها تحويلية وليست ثابتة (ستاتيكية)، ويمكن لبنية فرعية أن تكون جزءاً من بنية تنتمي لنسق أكبر، بياجيه وهو يحلل عملية تطور التفكير المنطقي عند الأطفال يرى أنّ هناك ثلاث بنيات أصلية مستقلة وأولية لا يمكن رد إحداها إلى غيرها ويمكن تعميمها في مواقف مختلفة، وهي بنية التصنيف Structure de classification أي تصنيف الأشياء من خلال التشابهات والاختلافات، بنية التسلسل Structure de série أي ترتيب الأشياء في سلاسل، البنية التيبولوجية Structure de typologie هي بنية تصنيفية أيضاً لكنها تتأسس على مفهوم علاقات الحدود والتخوم والتقارب والتجاور، أي كشف التقاربات وكشف حدودها وتخوم الأشياء والعلاقات وهذه البنية هي نمط عام للبنيتين السابقتين، ويعتقد بياجيه أن اتحاد بنيتين أو أكثر هو مصدر لبنيات رياضية أخرى (1)، وقد فصل بياجيه بين البنوية واللسان دون أن

(1) جان بياجيه، الإستمولوجية التكوينية، تر: السيد نفادي، دط، دار التكوين/دار العالم الثالث، دمشق/القاهرة، 2004، ص 62.54

يلغي أهمية اللغة، عندما أجرى تجاربه على الأطفال الصم البكم وتوصل إلى أنهم يملكون بنيات منطوية دون لغة حتى وإن كانت تتشكل لديهم متأخرة عن الأطفال العاديين، وهي ليست بنيات فطرية وإنما متشكلة بفعل النضج العقلي.

■ كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss (1908-2009):

عالم اجتماع وأثنروبولوجي بلجيكي المولد فرنسي الموطن، لقب بعميد البنيويين ورائد البنيوية، عمل في بحوثه وكتابه على الثنائية المشكولة: الطبيعة البشرية والتنوع الثقافي، وعمل على إظهار الخصوصية الثقافية في ظل وحدة الطبيعة البشرية كبنية واحدة موحدة، بنيوية شتراوس يطرحها بعض الباحثين والمفكرين كفلسفة عصر الحداثة، ويطرحها آخرون كمنهج تفكير وبحث، أما نحن فلا يضيرنا الأمرين إذ نعتقد أن الفكر والمنهج شيء واحد كلاهما وجهين لعملية البحث، فالمنهج ينظم الفكر والفكر يطور المنهج.

يهتم شتراوس بالبنية الداخلية للظواهر أكثر من اهتمامه بوظائفها الخارجية، وكل ظاهرة يجب أن تحلل إلى عناصرها الأولية البسيطة لفهمها وفهم التحويلات الممكنة لها، فالملاحظة بالنسبة له لا تكشف الحقائق فهناك بنى خفية تحكم الظواهر، والتحليل البنيوي المتجاوز للواقع الظاهر عيانيا هو الكفيل بكشفها وكشف القواعد التي تحكمها، فالبنيوية عند شتراوس هي البحث في البنيات الخفية العميقة التي تتحكم في الظواهر وفي الطبيعة البشرية، والبنية عند شتراوس ليست معطاة في الواقع يمكن ملاحظتها فهي ليست تجريبية وإنما تجريدية تستشف من خلال تحليل الظواهر والعلاقات.

■ جاك لاكان Jacques Lacan (1901-1981):

طبيب وعالم نفس فرنسي مختص في التحليل النفسي، اعتمد لاكان في عمله مع مرضاه على البنيوية اللغوية وقام بإعادة تفسير أعمال فرويد من زاوية الرؤية تلك، وكان يعتقد أن شفاء الأمراض النفسية لا يتم إلا عن طريق الكلام، فاللاوعي يتخذ طريقا له نحو الخارج عن طريق اللغة التي تنتمي إلى منظومة الرمزي، فزلات اللسان، والقراءات الخاطئة، ونسيان الأسماء... كلها كاشفات للاوعي، والذات هي لاواعية عند لاكان وهي ليست الأنا، فالتحليل النفسي إذن هو تحليل للذات أي للاوعي، الكلام الذي يصدر عن الذات يعتبره كلاما مهما ممتلئا والذي يصدر عن الأنا هو كلام فارغ، وبنية الرمزي عند لاكان ليست فوقية تتحدد بالبيولوجيا ولا بالواقع ولا بالمخيل، فعالم الرموز كلية جملة.

في تفسيره البنيوي لتشكل الذات يرى لاكان أنها تتشكل من ثلاث أبنية، البنية الرمزية هي الأساسية وهي بديل لما هو مفقود تعطي للعالم معنى ونظام، والبنية الخيالية هي عالم الوهم حيث تخطئ فيه الذات في التعرف على الرمزي، وبنية الواقع هي ما هو موجود في مكانه غير مفقود، دخول الطفل عالم اللغة يوازي انفصاله عن أمه وتتحول إلى موضوع بالنسبة له وهي أول تجربة فقدان (بنية

(الواقع)، الأب يتدخل في العلاقة بين الأم والطفل فيبدأ الطفل بتحديد هويته من خلال إحساسه بتمثاله مع الأب فيبدأ في تكوين ذاته الخاصة به (1) (بنية الرمزي) ، وهكذا يفهم الطفل الاختلاف الجنسي في حين من قبل لم يكن يدركه بل لم يكن يعتقد بوجوده(بنية الخيالي).

نذكر فقط أسماء آخرين أضافوا للمنهج البنيوي الكثير حيث طوروا المدرسة البنيوية

■ ألكسندر غولدن ويزر Alexander Aleksandrovich Goldenweiser

عالم اجتماع وأثنروبولوجي روسي المولد أمريكي الموطن، بالنسبة له الحضارة الإنسانية تتكون من جزء مادي وجزء لامادي وهي نتاج البشر، تمتد الثقافة والحضارة عبر العالم عندما تنتهي الظروف البنيوية لجماعة ما أو مجتمع ما بالإنشار أو الإتصال أو عن طريق تشابه العقل البشري وطرائق التفكير لديهم (2).

■ مارسيل ماوس Marcel Mauss

عالم اجتماع وأثنروبولوجي فرنسي، بالنسبة له الإنسان أصلا ظاهرة كلية ينبغي أن تدرس بطريقة بنيوية بجميع عناصرها وتفصيلها لا يمكن فصله عن بيئة المجتمع الذي يتشكل فيه، فتبادل الهدايا مثلا متأصل داخل بنية المجتمع، فهي مشروطة بأوضاع اجتماعية بنيوية معقدة، فالهدية ليست ضرورة اقتصادية أو حاجاتية كما قد تبدو في الظاهر وإنما هي أبعد من ذلك إنها بنية اجتماعية ذات أبعاد عقائدية وسياسية، بل إن التبادل هو أساس بنية المجتمع.

■ بيير بورديو Pierre Bourdieu

عالم اجتماع وإثنوغرافي فرنسي بالرغم من أن البعض يعتبره ماركسي وقد ذكرناه في المدرسة الماركسية لأنه تشبّع من الفكر والمفاهيم الماركسية وكتابات المستفيضة عن الطبقة، إلا أنه أيضا بنيوي تكويني (البنيوية التكوينية)، طور البنيوية بشكل كبير، بحث في آليات إعادة إنتاج بنيات المجتمع بالكشف عن البنيات الخفية التي تختفي خلف الظواهر البادية للعيان، معلنا ضرورة القطيعة الصارمة مع علم الاجتماع العفوي أو التلقائي Sociologie spontanée، فالموضوع الاجتماعي الحقيقي لا الزائف هو الموضوع المبني الذي يكشف نسق العلاقات كبنية.

(1) جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر: فاتن البستاني، ط1، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، 2008، ص 152.150
(2) إحسان محمد الحسن، مرجع سابق، ص40

المدرسة البنيوية المحور الثاني: التصور المنهجي للمدرسة العنصر الأول: القواعد المنهجية والنموذج التصوري

I / القواعد المنهجية الاسترشادية للمدرسة البنيوية: I / 1- معرفة نماذج البنية

يعتبر بياجيه وشتراوس البنيوية منهج بحث وليست مذهب فكري في تحليلها للظواهر ككليات، من منطلق فكري يقول أن الكل ليس تجميع أجزاء وإنما هو شيء آخر غير أجزائه، فالبنيوية لا تدرس عناصر البنية كأجزاء وإنما كعلاقات وروابط فيما بينها وفيما بينها والبنية في كليتها وفي علاقتها مع غيرها من البنى، وفي القواعد التي تحكم تلك العلاقات والتحويلات الممكنة لها، فهي من هذا المنطلق تقوم على مجموعة من القواعد المنهجية، يقول شتراوس أن البنيوية تؤلف منهجا خاصا قابل للتطبيق على الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلى علوم أخرى ويتم ذلك من خلال معرفة النماذج التي توضح البنية الاجتماعية، والنماذج التي تستحق إسم بنية يجب أن تلي أربع شروط.

الشرط الأول: أن تتسم البنية بطابع المنظومة، المنظومة النفسية بنية، المنظومة التعليمية بنية، المنظومة القيمية بنية...

الشرط الثاني: كل نموذج (بيني عقليا) ينتمي إلى مجموعة من التحويلات، بمعنى مجموع التحويلات يشكل مجموعة من النماذج.

الشرط الثالث: الخاصيتين السابقتين تسمحان بتوقع رد فعل النموذج عند تغير أحد عناصره.

الشرط الرابع: يجب بناء النموذج الذي يكون عمله ذا دلالة بحيث يمكنه صياغة جميع الوقائع الملاحظة الموصوفة المدروسة، أي أن يكون تعريف النموذج دقيقا وشاملا (1).

فكما يذكر شتراوس أنه بإمكان الباحث أن يتصور مجموعة من النماذج المختلفة الملائمة لوصف وشرح مجموعة من الظواهر، غير أن النموذج الصحيح هو الذي يلبي الشرط المزدوج شرط عدم استخدام وقائع أخرى غير المدروسة، وشرط تحليل جميع الوقائع، والعلاقات الاجتماعية هي المادة الخام لبناء النماذج المجردة لتحليل البنى.

فالنموذج يحدد الرؤيا ويوجهها، فهي نماذج لغوية أو أنثروبولوجية أو اجتماعية عامة مجردة ناتجة عن عملية رصد الواقع فهي بهذا لها وجود أمبريقي في ذاتها،

(1) كلود ليفي شتراوس، الأنثروبولوجيا البنيوية، تر: مصطفى صالح، دط، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1977، ص 328

حيث يبقي الباحث على بعض الوقائع ويستبعدا أخرى من وجهة نظره ثم يعيد تركيبها مشكلا خريطة إدراكية ينظر بها إلى موضوع بحثه، ولذا يقول "زكريا إبراهيم" أن دراسة الظواهر الاجتماعية من خلال المنهج البنيوي لا ينصب على الواقع التجريبي وإنما على النماذج التي يتم إنشاؤها إنطلاقاً من الواقع⁽¹⁾، فالنموذج يعكس مجموعة العلاقات والترابطات التي تشكل رؤية منهجية تحليلية تفسيرية للظاهرة موضوع البحث، وهذا نراه أيضاً في مفهومه العام مع "ماكس فيبر" في المدرسة الفهمية أو التأويلية حيث يبني النماذج المثالية لتفسير الفعل الاجتماعي، غير أن بمناخ النموذج البنيوي يكون أثناء البحث وليس قبله إذ ترفض البنيوية أية أفكار نظرية مسبقة.

I/2- أدوات البنيوية:

الكلية: فالبنية تدرس كنسق مترابط الأجزاء، أي دراسة العلاقات بين الأجزاء **التزامن:** يعني أن حركة عناصر البنية يتم في زمن واحد، وهذا التزامن يحدد مدى ثباتها، والتزامن يتعلق بما هو كائن الآن وليس بما سوف يكون، أو ما نطلق عليه السيرورة وهي تقدم استاتيكي يسير متقدماً في خط مستقيم وليس تطوري. **التعاقب أو التالي:** مرتبط بالتزامن، ويتعلق بصيرورة البنية أي التقدم والتحول معا وهذا يؤدي إلى حدوث التطور.

هذه الأدوات هي معالم الطريق للمنهج البنيوي منها تتولد المبادئ المنهجية للمدرسة البنيوية ونماذج المعقولة الإرشادية التي يتم بناؤها أثناء البحث وليس قبله، فالبنية نسق متماسك يتسم بالثبات، والبنيويون إنطلاقاً من ذلك يركزون اهتمامهم على مفهوم التزامن وليس التعاقب، فالتحليل البنيوي تحليل تزامني وليس تعاقبي، فحركة البنية هي حركة تكامل على عكس الجدل الماركسي حركة المتناقضات حركة تعاقبية، حركة التكامل هي التحول والتغير في ظل الثبات، بالمعنى الذي يطرحه زكريا إبراهيم نظام العلاقات الثابتة الثاوية خلف التغيرات⁽²⁾.

I/3- المبادئ المنهجية لدراسة البنية:

المبدأ الأول: أن يكون موضوع الدراسة أو البحث مجموعة عناصر متجانسة داخليا ومستقلة ذاتيا عمّا هو خارج عنها، ويعتبره شتراوس مبدأ عام في جميع المناهج العلمية.

المبدأ الثاني: البحث عن العناصر البسيطة داخل البنية

(1) زكريا إبراهيم، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، دط، مكتبة مصر، مصر، 1990، ص74
(2) نفس المرجع، ص37

المبدأ الثالث: وصف العلاقات النمذجية Pradigmatique والتركيبية، هذا المبدأ متضمن في الشرط الرابع للبنية من شروط البنية السابقة الذكر (1).

المبدأ الرابع: على الباحث تحليل العلاقات الظاهرة لعناصر البنية من أجل الكشف عن البنيات الخفية الكامنة وراء العلاقات الظاهرة.

المبدأ الخامس: دراسة البنية أنيا وليس تاريخيا، أي دراستها في لحظتها الراهنة بها وليس البحث عن أصلها وتطورها، وهذا مبدأ حاد عنه الكثير من البنيويين بما فيهم ليفي شتراوس أبو البنيوية بسبب تعقد البنية وتاريخيتها.

المبدأ السادس: الحياة الاجتماعية هي المجال الأساسي لتحديد أشكال البنى الاجتماعية (2) (سياسية، دينية، أسطورية...)

الدراسة البنيوية إنطلاقا من هذه المبادئ تحلل البنية إلى أجزاء وعناصر بسيطة، تصنف العناصر وفق قاعدة تكون قد أعدت ضمن النموذج المتعلق للبنية إنطلاقا من الملاحظات التي تم تسجيلها من الواقع، إستكشاف مجموعة القواعد التي تحكم العناصر من تلازم وتعارض وتبادل بين العناصر المكونة للبنية، إعادة بناء العلاقات الخفية إنطلاقا من المقارنات التي يجريها الباحث بين النموذج الإنشائي الذي يتعلق بالعلاقات والترابطات الفعلية بينة عناصر البنية وبين كليتها، وبين النموذج التجريدي المتعلق الذي ينشؤه الباحث الخاص بالدلالات الممكنة للعلاقات والروابط بين عناصر البنية داخليا وخارجيا، إعداد نموذج تفسيري إنطلاقا من كل ذلك.

II / النموذج التصوري للمدرسة البنيوية:

كما كل مدرسة فكرية أيا كان مجال التخصص حتى وإن كانت في الرياضيات فإنها تقوم على مجموعة من التصورات أو نموذج من التصورات في رؤيتها للظواهر موضوع ذلك العلم كما رأينا مع المدارس السابقة وهذه التصورات هي مجموعة فروض تقوم عليها، نعرض تصورات المدرسة البنيوية في النقاط التالية:

- أساس ما نبدأ به هذه التصورات الذي يبني عليه البنيويون باقي أفكارهم قولهم أن الواقع الحقيقي ليس هو الواقع العياني الظاهر المحسوس وإنما هو الواقع المتعقل (أي الذي يتشكل من تجريدات العقل)، ف خلف الظواهر الملاحظة يوجد بنى (بنيات) خفية لاشعورية رمزية يجب استكشافها، فليس الجزء هو الذي يفسر البنية وإنما البنية هي التي تحلل وتفسر الجزء، آراء الفاعلين الاجتماعيين غير مهمة لدى البنيويين وبالتالي الإستبيانات والمقابلات والاتجاهات لا تظهر حقيقة الأنظمة والأبنية

(1) جون ستروك، البنيوية وما بعدها، تر: محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 206، فبراير 1996، ص 60.58

(2) أحمد القصير، منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية والبنيوية، ط3، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 2012، ص 181.179

والأنساق والعلاقات، إنّما إظهار قوانين وقواعد منطق النسق والبنىات الخفية والعلاقات البنيوية هي التي تؤدي إلى فهم آراء واتجاهات وتصورات الفاعلين الاجتماعيين⁽¹⁾، فالباحث من خلال المنهج البنيوي مطالب بتجاوز الوقائع الملاحظة وكشف البنىات الخفية والتحويلات المحتملة والممكنة لها حتى يمكننا تفسير الظواهر. - الظواهر ليست تجميع أجزاء وعناصر بل هي كلية تتسم بتمايز الهوية، أي أنّ هوية البنىات تختلف عن هوية عناصرها، فهوية المجتمع مثلا تختلف عن هوية الأفراد المكونين لذلك المجتمع، فخصائص البنىات تختلف عن خصائص العناصر المكونة لها، ولذا من العبث البحث عن خصائص العناصر، فالبنيوية تبحث عن القواعد الكلية التي تحكم الظاهرة ككل أي كنسق، فالظاهرة تعتمد على بنيتها الخاصة بها كنسق أو ككلية، وعمل الباحث البنيوي هو البحث في شكل البنىات وفي تحولها، وكشف طبيعة العلاقات الظاهرة والخفية، وكيف تعيد البنية إنتاج نفسها، وماهي تلك القواعد التي تحكم ذلك، البحث البنيوي ليس بحث شكلائي صوري يكتفي بالتصنيف فقط كما يعتقد البعض وإنما هو بحث في العلاقات الاجتماعية التي تشكل منطق النسق على حد تعبير بيار أنصار.

- البنيوية حتى وإن كانت تنكر على لسان أصحابها نظرتهم الحتمية للواقع الإنساني، إلا أنّ الباحث المتصفح للإنتاج الفكري البنيوي يكتشف أن الأفراد من منظور هذه المدرسة هم حصائد البنىات الاجتماعية التي تشكّلهم منذ الطفولة الأولى، بل مع بورديو ومن سبقوه إنّنا نعيد إنتاج تلك البنىات بوعي أو دون وعي من خلال الهابتوسات (ملكات تتشكل من خلال التنشئة الاجتماعية) والأوضاع والوضعيات الاجتماعية التي تشترطنا.

(1) ANSART Pierre, Les Sociologies Contemporaines, 3^{ème} éd, édition de seuil, Paris, 1990, p38

المدرسة البنيوية المحور الثاني: التصور المنهجي العنصر الثاني: مراحل التحليل ونسق التفسير

I / مراحل التحليل البنيوي (مستنتج من طرف الباحثة من جملة القراءات حول البنيوية):

يمكننا أن نبسط مراحل التحليل في المدرسة البنيوية إلى عناصر هامة جدا كالتالي:
أ- المجتمع بناء إجتماعي يشكل كلية مترابطة، وكذلك جميع البنيات الاجتماعية الفرعية داخل المجتمع هي كليات وفق موضوع الدراسة، فإذا أردنا دراسة البنية التعليمية فهي كلية بالنسبة لموضوع الدراسة، والعناصر التي تتكون منها تعتبر أبنية فرعية مثل المدارس، المناهج التعليمية، القوانين الناظمة للمنظومة التعليمية...
ب- البناء المجتمعي يتكون من مجموعة أبنية فرعية، البنية الدينية، البنية الثقافية، البنية التعليمية...

ج- الأبنية الفرعية متساندة فيما بينها ولذا أي تغيير في إحداها يؤدي إلى تغيير في البنية الكلية وبقية الأبنية، ففي بنية الأسرة مثلا الطلاق تغير يمسّ العلاقة بين الزوجين لكنه يؤدي إلى تغيير في جميع العلاقات الأخرى الممكنة كالعلاقة مع الأبناء، العلاقة مع محيط العائلتين، علاقات العمل...

ت- البنية الاجتماعية يمكن تحليلها إلى عناصرها الأولية، فبنية الأسرة يمكن تحليلها إلى علاقة زواج، علاقة مصاهرة، علاقات البنوة...

ث- عناصر البنية ترتبط فيما بينها بعلاقات وروابط هي محور التحليل البنيوي، العلاقة مثلا بين الضبط الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية.

ج- تكشف البنيوية عن عوامل الثبات والتغير داخل البنية، من عوامل الثبات الضبط الاجتماعي والتنشئة الأسرية، التربية الدينية، من عوامل التغير مستوى الحضرية والتنمية ومستوى التعليم.

ح- لا بد في المنهج البنيوي من بناء نموذج تصوري عن العلاقات الممكنة داخل البنية لاكتشاف العلاقات الخفية، كما فعل بيير بورديو في تحليله للبنية التعليمية في فرنسا حيث أظهر أن المناهج التعليمية هي بنيات تخفي علاقات الهيمنة والعنف الرمزي الذي تمارسه الطبقة المهيمنة على الطبقة المهيم عليها، ومنه فسّر أنّ العنف الرمزي ما هو إلا شكل من أشكال إعادة إنتاج الهيمنة، نموذج بورديو التصوري هي مجموعة المفاهيم التي صاغها لتحليل البنيات المدروسة منها الهابتوس، الحقل، العنف الرمزي، الرأسمال الثقافي، الرأسمال الاجتماعي.... وهي كلها عبارة عن تضمينات رمزية للعلاقات داخل البنية.

خ- صلاحية نموذج التحليل تظهر من خلال توافقه مع المعطيات التي تمّ جمعها من الواقع، فالمثال السابق لنموذج بورديو يتطابق مع المعطيات الإثنوغرافية (البحث الميداني الوصفي) التي قام بجمعها من ميدان بحثه بمساعدة زميله "جون كلود باسرون"، حيث وجد أنّ النجاح الدراسي والمستويات العليا من التعليم غالباً يحضى بها أبناء الطبقة العليا، فأبناء العمال ينتهجون إرث آبائهم من حيث التخصص والمهنة وكذلك أبناء الطبقة العليا...

II / نسق التفسير التفسيري (الطلاق نموذجاً إستعنا فقط بفكرة إحسان محمد الحسن مع تصرفنا فيها بالشرح والأمثلة لتسهيل استيعاب الطالب لها) (1):

يمكن في ظاهرة الطلاق أن تتم دراستها من خلال المنهج البنيوي بحيث نبحت عن جميع العوامل البنيوية التي تدفع الزوجين إلى فعل الطلاق، فالتحليل البنيوي يهتم بطبيعة العلاقات وخصائصها أو خواصها فلا بنية دون علاقات، لناخذ مثلاً أسرة نووية سنبحث في العلاقة بين الزوجين فيما بينهما وفيما بينهما والأبناء، وعلاقة الأبناء فيما بينهم، علاقة الزوجين بأسرة المصاهرة من كلا الطرفين، علاقة الأبناء بأسرة المصاهرة من جانب الأب والأم.... وهكذا، والعلاقات هذه أيضاً تتفرع إلى مجموعة من العناصر علاقات حميمية، اقتصادية، تربوية، قرابية....، داخل العلاقة الواحدة كالعلاقة الحميمة مثلاً نستطيع أن نبني نموذج تصوري تجريدي للعلاقات المحتملة والممكنة، علاقات (حب، نفور)، (مسؤولية، إهمال)، (حوار، عزلة)، (مشاحنات، ود)... وهكذا.

بطبيعة الحال لا يمكننا في محاضرة أن نقوم بهذا التحليل وبنناء النموذج العقلي إنّما نكتفي بأمثلة يمكن القياس عليها من أجل الفهم فقط، فالتحليل البنيوي الذي يبنى عليه التفسير البنيوي ليس بالأمر البسيط يحتاج إلى خبرة وتجربة وفهم صحيح للموضوع، فهم موضوع الطلاق بأنه ليس حالة فك الرابطة الزوجية لأسباب ذاتية اختيارية تلقائية، وإنّما ناتجة عن علاقات بنيوية تمثل خصائص البنية ذاتها، فمن خصائص البنية الأسرية أنها جماعة أولية ذات علاقات حميمية وروابط متماسكة ودية داعمة...، أي تحول في هاته العلاقات يؤدي إلى إمكانية حدوث الطلاق وتفكك البنية الأسرية تماماً أو إعادة تشكيلها في بنية جديدة كالأسرة المختلطة *famille recomposée* التي تتكون من رجل مطلق مع أبنائه وامرأة مطلقة مع أبنائها وهي نادرة في المجتمع الجزائري، فالموجود لدينا هو أسرة ذات زوج الأم أو ذات امرأة الأب، عائلة الوالد الوحيد *La famille monoparentale* قد يكون الأب وغالباً في

(1) إحسان محمد الحسن، مرجع سابق، ص 42.43

الجزائر ماتكون الأم، فالمعروف عن المرأة الجزائرية عزوفها عن الزواج حالة وفاة الزوج أو الطلاق إذا ما كانت ترعى مجموعة من الأبناء.

من أمثلة العلاقات البنيوية التي قد تؤدي إلى حدوث الطلاق نذكر، البنية الاقتصادية وهي بنية معقدة جدا لأنها ذات ارتباطات كثيرة، ترتبط بمستوى الحضرية، بتطور الحاجات عموما، بمستوى طموح الزوجين والأبناء، بالأزمات الاجتماعية...، أيضا البنية القانونية متشددة/متساهلة، ذكورية/غير ذكورية، مسؤولية/غير مبالية...، البنية القرابية متدخل/غير متدخل، جاذبة/طاردة، متماسكة/مفككة... البنية الأسرية ذاتها في كليتها منفتحة/منغلقة، متكيفة/غير متكيفة، تقليدية/حديثة...

من كل هذه التحليلات يستكشف الباحث العلاقات الخفية التي تؤدي إلى الطلاق، لا نكتفي بالقول مثلا أن برودة العلاقة الزوجية أو المشاحنات اليومية بين الزوجين هي التي أدت إلى الطلاق فهذه تفسيرات سطحية والبنية عميقة، بل نتجاوز ما هو ظاهر على السطح إلى ما هو مخفي داخل العلاقات البنيوية، فالمشاحنات اليومية قد كون ناتجة عن عملية ترقية حدثت في العمل للزوج فانفتح على مستوى ووضع اجتماعي أدخله في بنية عمل جديدة من حيث خصائصها وعلاقتها لم تعد تتوافق مع العلاقات البنيوية الأسرية، ونعرف شخصا حالات من هذا النوع حيث لم تعد العلاقة التي تربط الزوج بزوجه تتوافق مع علاقات العمل الجديدة التي يتم فيها حضور الحفلات برفقة الزوجة، إستقبال رفاق العمل في المنزل، تبادل الزيارات مع رفاق العمل....

III/ نقد البنيوية:

- يقبل رجاء غارودي بالبنيوية كمنهج بحث من بين المناهج الأخرى الموجودة كإثراء لطرق البحث العلمية، لكنه ينتقد البنيوية كتصور فكري مذهبي التي حوّلت الإنسان كما يقول إلى قراقوز يتحرك على خشبة مسرح الحياة بحبال البنى لا حول ولا قوة له (1)، صحيح أن البنيات الاجتماعية تؤثر على الفعل الإنساني وتشرطه، غير أنّ البنيوية جعلت الإنسان مسلوب الإرادة مع أنّ الإنسان هو الذي يصنع التاريخ ويبدع التغيير، وللإنصاف يذكر غارودي أنّ لا دي سوسور ولا جاكبسون، ولا شتراوس يزعمون أنّ الواقع كله يعود إلى البنية دون الفعل الإنساني، وإنّما البنيوية التي تحوّلت من منهج إلى مذهب فلسفي هي التي قتلت الإنسان على حساب البنية.

- تقوم تحليلات البنيوية على نماذج المعقولة المجردة التي يكونها الباحث إنطلاقا من موضوع الدراسة على أساس أنها معيار الحقيقة والموضوعية، لكن هذا يضعنا أمام

(1) روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، تر: جورج طرابيشي، ط1، دار الطليعة، بيروت،

مجموعة من (الحققات) إن صحّ التعبير، كل حقيقة هي انعكاس لنموذج عقلي وليست تجلي للواقع.

- يذكر غارودي عن ليفي شتراوس أنه يقرّ بوجود فجوة بين البنيوية والتاريخ قائلاً بعد أن مدح التاريخ >> إن هذه المجاهرة بالإيمان التاريخي يمكن أن تفاجئ بعضهم، نظراً إلى أنه قد وُجد أحياناً من يأخذ علينا انغلاقنا على التاريخ... والحق أننا نكاد لا نمارسه بالمرّة، ولكننا نحرص على الإحتفاظ له بحقوقه<<(1).

- المتطرفين المتشائمين يقولون أن البنيوية قتلت الإنسان والذات والتاريخ والفلسفة أيضاً، والمتطرفين المتفائلين يقولون أن البنيوية فكر بلا مفكرين لأنها موجودة في الكثير من العلوم من جهة ولأن فيها اختلافات كثيرة من جهة أخرى.

- مشكلة البنيوية أنها تحتوي على أشكال متعددة ومختلفة من البنيويات(2)، البنيوية الوضعية، البنيوية العقلية، البنيوية الوظيفية، البنيوية الدينية، البنيوية اللغوية، البنيوية الرياضية، البنيوية التكوينية...

- البنيوية لا تفسر التغير الاجتماعية كفعل دينامي أو كصراع المتناقضات بل كتحول في عناصر البنية بفضل التعاقب السابق شرحه، غير أن الظاهرة الاجتماعية أعقد من أن تفسر بتغير البنية بتغير عناصرها دون أن نجد أي حضور للوعي الإنساني.

- على حد تعبير جاكسون لا فائدة ترجى من إصلاح المكونات الفردية في المقاربة البنيوية مهما فعلنا(3)، كما أنه يستحيل في هذه المقاربة تفسير الوعي والقيم وحركة التاريخ.

ملخص عن المدرسة البنيوية

تناولنا في الشق الأول من المدرسة البنيوية كيف وُلدت المدرسة في خضم التطور الهائل الذي شهدته البشرية، والتغيرات التي كانت تصنع أحداث تاريخية جديدة كالحربين العالميتين والثورات المختلفة، دون أن تقدّم المدارس الاجتماعية أجوبة مرضية عن تلك التحولات، جاءت البنيوية رافضة للمقاربات الموجودة، سواء الجدلية الماركسية مع تحول الشيوعية الروسية إلى دكتاتورية قمعية، أو الوجودية التي ادّعت تحقيق الذات والتي دخلت معها البنيوية في حرب ضروس، أو النزعة

(1) نفس المرجع، ص 24

(2) ت.أساخاروفا، من فلسفة الوجودية إلى البنيوية، تر: أحمد برقواوي، ط1، دار دمشق-دار المسيرة، دمشق-بيروت، 1984، ص 167

(3) ليونارد جاكسون، مرجع سابق، ص 367

التجريبية الأمبريقية الوضعية التي زعمت بتمائل مناهج العلوم الإنسانية مع مناهج العلوم الطبيعية، أو الفلسفة التي رفضتها البنيوية بحجة أنها أفكار ميتافيزيقية لتتحول هي سريعا إلى فلسفة، أو التحليل التاريخي بحجة أنه تحليل إيديولوجي لتقع هي في الإيديولوجية، أو دراسات الفعل بحجة أن الفرد عجينة المجتمع.

جاءت البنيوية تحمل مشروع الفهم الشمولي والكلاني للعالم والظواهر بطريقة عقلية موضوعية، وكما جاءت سريعا ذهبت سريعا فقد عرفت اختلافات وتناقضات كثيرة، فإذا كان لويس ألتوسير يقول "إن التاريخ مسيرة ولكن دون ذات"، نجد جان بياجيه يقول "ما كانت البنيات لتقتل الإنسان أو تقضي على أنشطة الذات" وهذا يظهر التناقض بين الرجلين البنيويين، وفي هذا قال الفيلسوف الفرنسي المعاصر لوسيان سيف في كتابه البنيوية والماركسية "إنها تتخذ أشكالاً متعددة للغاية بعضها متجزأ بينما بعضها الآخر متناقض".

في الشق الثاني من المدرسة بيننا التصورات المعرفية التي تقوم عليها البنيوية كمقاربة لا تاريخانية، البنيوية العازفة عن تاريخانية الوجود الإنساني والمشيحة بوجهها عن فعل الذات في البنيات، تنظر إلى المجتمع كمادة صلبة من بنيات معزولة عن مآلاتها وأسبابها وغاياتها، بل ومعزولة أيضا عن الإنسان ذاته مما جعل البعض يصفها بالمقاربة اللإنسانية التي قتلت الإنسان وأبقت على مؤسساته، لكن بيننا أنها مدرسة قدمت إضافة هامة على مستوى المنهج إذ أظهرت أهمية دراسة البنى في مختلف التخصصات، وقد تركت للمقاربات الفكرية التي أتت بعدها رصيذا معرفيا صحح مسار مقاربات أخرى كالوظيفية ودراسات الفعل وغيرها.

مراجع المدرسة البنيوية:

- 1- إحسان محمد الحسن، النظريات الاجتماعية المتقدمة دراسة تحليلية في النظريات الاجتماعية المعاصرة، ط3، دار وائل، عمان، 2015
- 2- أحمد القصير، منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية والبنيوية، ط3، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 2012
- 3- ت.أ.ساخاروفا، من فلسفة الوجودية إلى البنيوية، تر: أحمد برقاي، ط1، دار دمشق-دار المسيرة، دمشق-بيروت، 1984
- 4- جاك هارمان، خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية، تر: العياشي عنصر، ط1، دار المسيرة، عمان، 2010
- 5- جان بياجيه، الإبستمولوجية التكوينية، تر: السيد نفاذي، دط، دار التكوين/دار العالم الثالث، دمشق/القاهرة، 2004
- 6- جان بياجيه، البنيوية، تر: عارف منيمه وبشير أوبري، ط4، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1985
- 7- جون ستروك، البنيوية وما بعدها، تر: محمد عصفور، المجلس الوكني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 206، فبراير 1996
- 8- جون ليشته، خمسون مفكراً أساسياً معاصراً من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر: فاتن البستاني، ط1، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، 2008
- 9- حسن حسين زيتون وكمال عبد الحميد زيتون، البنائية منظور إبستمولوجي وتربوي، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1992
- 10- روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، تر: جورج طرابيشي، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1979
- 11- زكريا إبراهيم، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، دط، مكتبة مصر، مصر، 1990
- 12- كلود ليفي شتراوس، الأنثروبولوجيا البنيوية، تر: مصطفى صالح، دط، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1977
- 13- ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية، تر: ثائر ديب، ط2، دار الفرقد، سوريا، 2008
- 14- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت
- 15- Ansart Pierre, Les Sociologies Contemporaines, 3^{ème} éd, édition de seuil, Paris, 1990
- 16- Philippe Riutort, Les sociologies constructivistes La double dimension du social, in Précis de sociologie, 3^e éd, Collection Major, PUF, France, 2014

<http://download1133.mediafire.com/q7xiexcoegg/vbcfca6dob7ewqn/Pre%CC%81cis+de+sociologie.pdf>

17- Pierre Bourdieu, Le Sens Pratique, Paris, les éd de Minuit, 1980

المدرسة الوظيفية

المحور الأول: النشأة، التاريخ، والرواد

أهداف الدرس المتعلق بالمدرسة الوظيفية:

من أكثر النظريات هيمنة على الفكر الاجتماعي ولفترة طويلة هي المدرسة الوظيفية، تبوّأت في الفكر الاجتماعي منزلة القاطرة Une locomotive من القطار، فكل العربات النظرية التي بعدها ولدت من رحم هذه النظرية بشكل أو بآخر من خلال الإنتقادات الموجهة إليها والثغرات الموجودة فيها، النظريات التي جاءت بعدها كانت تطويراً أو تجاوزاً، والذي زاد من تأثيرها ذلك التزاوج التصحيحي بين البنية والوظيفة، واهتمامها المشروع بالبحث في الكليات الاجتماعية.

تبحث المدرسة الوظيفية في استقرار الأنساق الاجتماعية وتوازنها، وكيف تستمر الثقافات والأعراف والقيم والمعايير والمؤسسات، كيف مازالت الأسرة منذ آلاف السنين قائمة، وكيف مازالت الأعراس تقوم بوظيفتها في الإعلان الرسمي عن الزواج الرسمي، وكيف مازال مفهوم الدولة مستمر بقوة، وعلى الرغم من أن الحياة متغيرة إلا أننا لا نستطيع أن ننكر وجود الأنماط واستمرار المؤسسات والأنظمة، وكيف يقوم الأفراد بأدوارهم ويتمثلون مكانتهم، المدرسة الوظيفية تقدم زاوية نظر لفهم استمرار الأنساق الاجتماعية، وأداء الأفراد والمؤسسات والبنى لوظائفهم. وعلى الرغم من توجه المدرسة الوظيفية المحتشم نحو تحليل التوترات والإضطرابات، وعلى الرغم من النقد الشديد للمدرسة الوظيفية لإيديولوجيتها المحافظة إلا أنها وجدت في البلدان الشمولية والتقليدية كالعالم العربي أرضاً سعيدة للتجدر، ومع ذلك لا نعتقد أنها نظرية مخدرة، ولا نشك في براءتها السياسية وقد صرّح بارسونز بذلك، ونعتقد أنها زاوية رؤية موجودة في الحياة ذاتها كما هو موجود الصراع والتدافع، وكما هي موجودة الحركة والتطور، وللإنصاف قدمت هذه النظرية الكثير للفكر الاجتماعي، فقد كشفت عن أهمية البحث في المستلزمات الوظيفية إذا ما كنا نبحث عن استقرار النسق أو المنظومة، وجعلتنا هذه المدرسة نفهم وظيفوية أشياء لم نهتم لها كثيراً مثل الهبة والتاوسة والأعراس الصاخبة، كما أن معرفة الأنماط الثقافية تتيح فهماً أكثر للتنوع والإختلاف، وأصبحنا نقرأ وظيفوية طقوس العبور نحو الرشد الشديدة القسوة في المجتمعات البدائية برؤية أوضح، صرنا نفهم أكثر كيف تتأبد الأوضاع والأنساق مثلما عرفنا مع الماركسية كيف تتغير وتتبدل.

I/ تعريف الوظيفة:

I/1- الوظيفة لغة: الوظيفة الرجل القويّ على المشي، وجاءت الإبل على وظيف تبع بعضها بعضاً، وأصاب وظيفة القوم تبعهم، وهو ما يقدر لك في اليوم من طعام أو رزق ونحوه، والمواظفة الموافقة والملازمة، واستوظفه استوعبه (1)، فالوظيفة لغة إذن شيء ملازم شيء يتبعه ويلازمه ويستوعبه ويحتويه.

I/2- الوظيفة Fonction اصطلاحاً: أستعير هذا المفهوم من البيولوجيا وعلم الأحياء حيث الحديث عن وظائف أجهزة الجسم، أي العمل الذي يقوم به عضو من أعضاء الجسم للحفاظ على بقائه وبقاء الجسم ككل، وفي العلوم الاجتماعية نجد دوركايم يظهر دالتين مختلفتين لها، فهي تعني نظام الحركات أو العمليات الحيوية للعضوية système de mouvements vitaux بغض النظر عن نتائجها، ومن جهة أخرى تعني علاقة الأنسجاء والتوافق بين تلك العمليات وبعض حاجات العضوية، إننا نتحدث مثلاً عن وظيفة الهضم كعملية حيوية لكننا أيضاً نقول أنّ وظيفة الهضم هي تمثيل الغذاء من مواد صلبة وسائل للقيام بعملية الإستقلاب (تعويض الجسم ما يخسره من طاقة) (2)، فدوركايم يتبنى الدلالة الثانية وبذلك يربط مفهوم الوظيفة بإشباع الحاجات على اختلافها، ويسمّيها "تالكوت بارسونز" المستلزمات الوظيفية وهي الشروط التي تسمح للنسق والمنظومة بالإستمرار في الوجود عن طريق إشباع حاجاته اللازمة.*

في الرياضيات تعني وظيفة العلاقة بين متغيرين، فالمتغير ع مثلاً الذي يتأسس على دلالة س هو متغير تابع لـ س ونقول عنه دالة س أو وظيفته، أمّا في البيولوجيا وظيفة تعني العمل الذي يقوم به العضو أو الإسهام الذي يقدمه داخل المتعضية (3).

II / تعريف المدرسة الوظيفية Fonctionnalisme: (البعض يترجمها الوظائفية والبعض يترجمها الوظيفوية)

هي المدرسة التي تهتم بدراسة الأنساق والتنظيمات والبنى الاجتماعية ككلية متساندة الأجزاء والعناصر حتى وإن كانت تبدو من الخارج أنها مستقلة عن بعضها البعض، تدرس هذا التساند من خلال الوظائف التي تقوم بها الأجزاء لتلبية حاجات النسق أو البنية أو المنظومة من أجل بقائها واستمرارها، وهي نظرة مستلهمة من

(1) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005، ص860

(2) Emile Durkheim, de La Division du Travail Social, 2^e éd, Quadrige/PUF, Paris, 1991, p11

* يمكن العودة إلى محمد عبد المعبود مرسي، علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز بين نظريتي الفعل والنسق الاجتماعي (دراسة تحليلية نقدية)، ط1، مكتبة العليقي الحديثة، القصيم، السعودية، 1984
(3) شارلوت سيمور-سميث، موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية، تر: علياء شكري وآخرون، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009، ص557.558

المدرسة العضوية القائمة على المماثلة البيولوجية فالعضوية تتكون من أجهزة وأعضاء ذات وظائف يكمل بعضها البعض من أجل الحفاظ على بقائها، وهي مدرسة كما نلاحظ تهتم بخفض التوترات الاجتماعية وإدامة التوازن والاستقرار الاجتماعي، تبحث في التكيفات والتوافقات فهي إذن من المنظورات الكبرى Macro Sociologie، مقارنة هذه المدرسة تنصب حول معرفة ما الذي يجعل المجتمع والتنظيمات والجماعات والمنظومات والأنساق والبنى تستمر وتدوم رغم التغييرات التي تحدث باستمرار على مستوى العناصر المشكلة لها، فهي مقارنة تهتم بدراسة الاستقرار الاجتماعي.

في علم النفس يعتبر وليم جيمس من روادها الأوائل، وإذا كانت البنيوية في علم النفس تهتم بمركبات الوعي وعناصره المشكلة له، فإن المدرسة الوظيفية في علم النفس إهتمت بدراسة وظيفة الوعي والشعور والخبرة الذاتية والعقلية التي تظهر في قدرة الأفراد على التكيف مع بيئتهم، واعتقد الوظيفيون النفسانيون بوجود أجهزة نفسية تشكل الوجود الفردي، كالوعي والشعور والعقل والإدراك... وكل جهاز يقوم بوظائف معينة تتكامل مع بقية وظائف الأجهزة الأخرى تتيح للأفراد القدرة على التكيف مع بيئتهم المحيطة بهم.

الوظيفية عموماً تتمحور حول ثلاث أفكار رئيسية هي (1):

- الإعتدال المتبادل القائم بين أجزاء النسق.

- دراسة حالة استقرار وتوازن النسق.

- دراسة ميكانيزمات إعادة التوازن والإستقرار للنسق الاجتماعي عند الاجتماعيين، أو للجهاز النفسي عند النفسانيين في حالة حدوث توترات داخله.

مع العلم أن مفهوم وظيفية يحمل أبعاداً مختلفة كغائية الأفعال والظواهر الاجتماعية، أيضاً الأدوار التي يحتلها الفاعلون داخل النسق والأدوار المتوقعة، الأهداف المسطرة للوصول إلى تحقيق الغايات، الواجبات التي يتحملها الفاعلون، التفاعلات والعلاقات داخل النسق، المتطلبات اللازمة لاستقرار النسق... فالمفهوم ليس بسيط أبداً فهو قادر على خلق الكثير من الإلتباس والغموض.

III/ نشأة وتطور المدرسة الوظيفية:

المدرسة الوظيفية عموماً تعتبر طريقاً ممهداً لظهور الوظيفية فهي رائدة المقاربة التحليلية الشمولية للظواهر الاجتماعية من جهة، ومن جهة أخرى قيامها على المماثلة العضوية التي تربط بين العضو ووظيفته لتحليل تكامل وظائف العضوية

(1) رث ولاس وأسون وولف، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، تر: محمد عبد الكريم الحوراني، ط1، دار مجدلاوي، الأردن، 2012، ص53

كسبب رئيسي في استمرار العضوية ككل متماسك، وأي خلل في وظيفة من وظائف عنصر من عناصر العضوية يؤدي إلى حدوث اختلالات قد تكون مميتة كما سبق وأن تناولناه في المدرسة الوظيفية.

على الرغم من مؤسعة دور كايم ضمن المدرسة الوظيفية من خلال تنظيره لمنهج علمي تجريبي أمبريقي، ينظر إلى الظواهر الاجتماعية كأشياء يمكن دراستها على نفس منوال المنهج في العلوم الطبيعية، إلا أنه أيضا يعتبر من أهم مؤسسي المدرسة الوظيفية، بل يعتبر مؤسسها الأول وهذا باتفاق عدد كبير من علماء الاجتماع، وفي هذا يقول "فيليب جونز" Philip Jones >> <<ترتبط الوظيفية بشكل واضح بعمل مؤسسها الأول "إميل دوركايم" >> (1)، ففي كتابه في تقسيم العمل الاجتماعي De la Division du travail social بدأ الفصل الأول من الكتاب الأول بمناقشة La Fonction de la Division du travail وظيفية تقسيم العمل وأسهب في الحديث عن الدور الذي تلعبه الوظيفة في استمرار الأنساق والمنظومات الاجتماعية، وكيف يخلق تقسيم العمل تكامل الوظائف وبالتالي يحدث الاستقرار والتضامن الاجتماعي، ولإن تحدث دور كايم عن الخلل الوظيفي إلا أنه لم يشتغل عليه كما اشتغل عليه بارسونز، فهذا الأخير لم يغض طرفه عن التوترات التي تحدث داخل المنظومة الاجتماعية واعتبرها كسالفه أمراض تعالج بمفهوم تكيف النسق وإدارة التوتر لاستعادة التوازن، اشتغل بارسونز أكثر على معالجة توترات النظام وقدم رؤيته للحفاظ على الأوضاع القائمة وإدامتها، كما أنه ربط الوظيفة بالبنية فلا وظيفة دون بنية ولا بنية دون وظيفة.

علينا أن نذكر أيضا المساهمة الرائدة لعلماء الأنثروبولوجيا الثقافية الأنجلوساكسون منهم مالمينوفسكي و رادكليف براون فكلاهما درس الثقافة بمقاربة وظيفية، باحثين عن وظائف الأنماط الثقافية كالعقائد والقيم والأفكار والأساطير... داخل ثقافة المجتمع رافضين التفسيرات التاريخية، تلك الوظائف يعلقها مالمينوفسكي بالحاجات و رادكليف براون يلفها بمسمى شروط الوجود الضرورية، لا يتحقق الاستقرار والتوازن إلا بتلبيتها، كما أنهم ساروا على نهج بارسونز فلم يهتموا بالبنية الاجتماعية كتجاوز للمعقولية الوظيفة المعلقة في فراغ، فالوظائف تتعلق بالبنية والأنساق والمنظومات، وأصبح يطلق عليها الوظيفية البنوية، ولا نجد حاليا من يتحدث عن الوظيفة دون البنية ولا من يتحدث عن البنية دون الوظيفة إلا بشكل استثنائي من أجل الصياغة التجريدية للمفاهيم.

(1) فيليب جونز، النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية، تر: محمد ياسر الخواجة، ط1، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010، ص71

وعرفت الوظيفية مع علم اجتماع التنظيمات إضافات ملحوظة خاصة مع عالمي الاجتماع الأمريكي دافيد كينجزلي وفيليب سيلزنيك والألماني ماكس فيبر، هذا الطرح أيضا يهتم بدراسة استقرار المنظومات الاجتماعية واستمرارها وعلاقة ذلك بوظائفها، فوظيفة المنظومة البيروقراطية عند فيبر مثلا هي تحقيق الفعالية الإدارية أو فعالية السلطة الشرعية، وسيلزنيك يعتبر التنظيم نسق قائم على المشاركة لا على المغالبة فالأساليب غير الرسمية تؤدي وظائف إيجابية للتنظيم أكثر من الأساليب الرسمية، وإن كان البعض يعتبر علم اجتماع التنظيمات مدرسة جديدة كما هو الأمر مع عالم الاجتماع الأمريكي وولتر فردريك بكلي Walter Frederick Buckley، لكن لا أحد ينكر ما أضافته للمدرسة الوظيفية من رؤى وأفكار.

وتطورت الوظيفية مع "روبير ميرتون" و"جيفري ألكسندر" و"نيل سملسر" و"نيكولاس لومان" وسميت بالوظيفية الجديدة Néofunctionnalisme حيث فتحوا نافذة على مسألة التغير والصراع والمعوقات الوظيفية، فقد قفزوا بالوظيفية خطوة كبيرة جدا إذ انطلقوا كوظيفيون من نقدهم للوظيفية الكلاسيكية وتعاملوا مع الصراع والتغير كحالة تتبع من النظام ذاته، ولم يعد النظام كمسألة بل كحالة بحث، بمعنى البحث عن كيفية قيام النظام مع وجود النزاع والاختلاف ويطلقون عليه "الاحتمال المزدوج" سنعود إليه لاحق مع ميرتون، وبعضهم يرى أن التغير لا يتم من خلال تغيير جزئي في عناصر النظام وإنما بتغيير كلي للنظام، إضافة إلى توجههم الجديد نحو الدراسات المتوسطة المدى بدل التوجه الشمولي الصعب المنال.

IV/ رواد المدرسة الوظيفية (لكثرتهم نتناول فقط أكثرهم مساهمة في المدرسة من القدامى والمحدثين):

■ إميل دوركايم Émile Durkheim (1858-1917):

فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، يعتبر مؤسس علم الاجتماع الحديث وعلم اجتماع التربية، إهتم بدراسة الأخلاق والقيم والتربية والتعليم، يعتبره الكثيرون مؤسس المدرسة الوظيفية لكنه أيضا من أهم رواد المدرسة الوظيفية، ولا عجب في ذلك فالوظيفية تعتبر امتداد للوضعيات كما سبق القول، أهم مؤلفاته ذات المقاربة الوظيفية هو كتابه في تقسيم العمل الاجتماعي De la Division du travail social وكتابه الآخر الأشكال الأولية للحياة الدينية Les formes élémentaires de la vie religieuse.

في تقسيم العمل يُظهر دوركايم كيف يمكن للنظام الاجتماعي أن يخلق توازناته الممكنة من خلال تكيفه مع الحاجات الجديدة للمجتمع، ففي المجتمعات التقليدية حيث درجة التجانس كبيرة داخله والمتأتية من النظام الاقتصادي الرعوي والزراعي القائم

على الملكية الصغيرة المشتركة، نجد تضامنا آليا بين عناصر المجتمع *La Solidarité Mécanique* حيث الفردي والجمعي شيء واحد بسبب التجانس والتشابه الكبير بين أعضاء المجتمع فهناك وجدان جمعي مشترك <<وجود تضامن اجتماعي ناتج عن وجود حالات من الوعي المشترك عند جميع أعضاء المجتمع الواحد>>⁽¹⁾ فهو ناتج عن أوجه الشبه بين أعضاء المجتمع الواحد، غير أنه مع ظهور الصناعة التي زحفت أيضا إلى المجال الزراعي في شكل الصناعة الزراعية دفعت إلى ظهور مسألة التخصص في العمل، فلا يمكن غالبا إنجاز عمل واحد دون مجموعة تخصصات تتكاتف في تحقيقه، هذا الوضع الذي يبدو للوهلة الأولى أنه يقضى على التضامن الاجتماعي ويصنع عدم التجانس والإختلاف يحلله دوركايم أيضا كتضامن لكنه تضامن عضوي *La Solidarité Organique* ، فتقسيم العمل إذن يستجيب لحاجات المجتمعات الصناعية الحديثة القائمة على التعاون، فوظيفته خلق التضامن بين أعضاء المجتمع لحاجتهم إلى بعضهم البعض <<يزداد الأفراد تضامنا كلما زاد تقسيم العمل>>⁽²⁾ فهو قائم على التعاون المشترك.

في الأشكال الأولية للحياة الدينية يظهر دوركايم وظيفة الدين التوليدية كأننا ما كان ذلك الدين، وإن كان دوركايم اعتمد على دراسة الديانة الطوطمية *totémisme* شمال أستراليا كأقدم الديانات إلا أنه تحليل في نظره يسري على جميع الديانات، فوظيفة الدين التوليدية تظهر في قدرته على إنتاج القيم الاجتماعية والمثل العليا التي تحافظ على استقرار المجتمع وتماسكه، هذه المثل تجمع أعضاء المجتمع حول قيم جوهرية توحيده، فالدين في نظره يشبع حاجات الناس إلى القيم العليا ويصنع عليها القداسة، ويولد مشاعر الوحدة والانتماء والروابط الاجتماعية بين العناصر التي تنتمي إليه.

دوركايم كما لاحظنا ركز في تحليله لظاهرة تقسيم العمل والظاهرة الدينية على جانبها الوظيفي، فالبحت عن وظيفوية الظاهرة الاجتماعية أمر حاسم في التحليل الوظيفي، لكنه لم يهمل حالة التوترات والصراعات الاجتماعية أو الأنوميا الاجتماعية كما أطلق عليها التي تصيب المجتمع، تناولها في كتابه تقسيم العمل ثم عاد إلى الحديث عنها بأكثر تفصيل في كتابه الإنتحار، والأنوميا الاجتماعية أو الخلطة الاجتماعية *Anomie sociale* هي الحالة التي يفقد فيها المجتمع المرجعية المعيارية فيتخبط في اللامعيارية *une Morale Imprécise, Inconsistante* حيث يُفقد الضبط الاجتماعي والقواعد الأخلاقية وهي نوعان:

(1) Emile Durkheim, de la Division du Travail Social, op.cit, p78

(2) Ibid, p101

➤ أنوميا حادة Anomie Grave: تنتج عن تغيرات مفاجئة قوية كالأزمات الاقتصادية، الأزمات الاجتماعية...

➤ أنوميا مزمنة Anomie Chronique: تنشأ من تغير شروط الحياة المستمر والمرافق لظهور المجتمعات الصناعية والتحويلات البنوية التي تحصل إثرها في المجتمع (1)، وهي أيضا تكون مفاجئة لكنها تستمر في التصاعد حتى تظهر جميع نتائجها، والانوميا الحادة تتحول في حالة استمرارها إلى أنوميا مزمنة.

تصور دوركايم عالج هذه الأنوميا بإعادة التأهيل الاجتماعي بفكرة الوسطية الاجتماعية (مصطلح خاص بالباحثة)، لقد تحدث دوركايم في تقسيم العمل الاجتماعي عن التكامل الاجتماعي l'intégration sociale، والتنظيم الاجتماعي la régulation sociale كميكانيزمين لاستعادة التضامن والتماسك الاجتماعي، فكلاهما إذا زاد أو إنخفض عن حد الاعتدال أدى إلى حدوث خلخلة في التضامن والتماسك الاجتماعي.

■ برونيسلاف كاسبر مالينوفسكي Bronisław Kasper Malinowski (1884-1942):

أنثروبولوجي بولندي درس معاشة سكان جزر تروبريوند Les îles Trobriand بالمحيط الهادئ من 1915 إلى 1918، باحثا عن معنى الأسطورة في سياقها الاجتماعي من خلال الطقوس والممارسة الثقافية وليس من خلال القصص و"الحدوثات" فقط، خرج من هذه الدراسة بأشهر كتبه على الإطلاق الذي نشر سنة 1922 "مغامرون غرب المحيط الهادئ" Argonauts of the Western Pacific، تناول فيه الهبة التي تتم في أجواء احتفالية ويطلق عليها نظام "الكولا" la Kùla، جميع أعماله الأخرى قامت على الكم الهائل من المعطيات التي جمعها من بحثه الإثنوغرافي في تلك الجزر.

سمى نفسه الوظيفي وعمل في جميع مؤلفاته على إبراز النظرية الوظيفية في مجال الأنثروبولوجيا، فهو ينظر إلى الثقافة كظاهرة كلية شمولية وظيفتها تكيف الأفراد، والحفاظ على الأنماط الثقافية للمجتمع >>تدل عبارة الثقافة، بحسب أحد المعاني الرئيسية التي يعطيها لها، على الكلية الناجزة المشكّلة من المؤسسات العديدة لمجتمع والتي تؤمن، بالإضافة إلى ضمان تكيف الأفراد، تناقل أنماط

(1) Emile Durkheim, Le Suicide, éd Félix Alcan, Paris 1897, p 9.10

مكتسبة»⁽¹⁾، لكن الشيء الجديد الذي أضافه مالمينوفسكي هو إعطاء الأهمية للفرد فالمجتمع موجود من أجل الأفراد وليس الأفراد موجودون من أجل المجتمع، ولهذا يجعل من الحاجات البيولوجية أو ما يطلق عليه الضروريات الإنسانية العامل الحاسم في حدوث الاستقرار أو التغير ولذا يسميها البعض نظرية براغماتية >>«إن النظرية التي يقدمها مالمينوفسكي... عن الوظيفية تميّز بين الحاجات الأولية -بيولوجية، شاملة وما قبل منطقية- والحاجات المشتقة الناتجة عن سيرورات التكيف، وتفرض نمط تحديد جديد للتصرفات البشرية تعرّف الثقافة كمكان حياتي ثانوي»⁽²⁾، فالبحت في وظيفوية الظاهرة الاجتماعية عند مالمينوفسكي من هذا المنطلق هو بحث في الحاجات الضرورية لبقاء الثقافة والجماعة.

نفهم من هذا أيضا أن الحاجات الإنسانية البيولوجية ذات امتدادات ثقافية، فاستجاباتنا لحاجاتنا الضرورية هي استجابات ثقافية وليست استجابات حيوانية صرفة، فقد تأثر مالمينوفسكي بسابقيه الذين نظروا إلى الوظيفة من زاوية الحاجات كضرورات وظيفية، ولذا وصف مجموعة من الضرورات الوظيفية مثل الطعام واستجابته الثقافية النظام الاقتصادي بكل تفاصيله الطويلة من صيد وزراعة و تبادل... الجنس واستجابته الثقافية هي نظام الزواج بكل تفاصيله الطويلة أيضا حسب كل مجتمع... فالضرورات البيولوجية الوظيفية هي مفتاح التحليل الثقافي عند مالمينوفسكي.

■ تالكوت بارسونز (1902-1979)⁽³⁾:

يعتبر بارسونز من الوظيفيين الذين قدموا الكثير لعلم الاجتماع الكلاسيكي، يعتبر كتابه بناء الفعل الاجتماعي The Structure of Social Action وكتابه النسق الاجتماعي The social system وكتابه البنية الاجتماعية والشخصية Social Structure and personality من أشهر كتبه على الإطلاق فهي تحتوي زبدة نظريته حول الأنساق والفعل الاجتماعي.

قسّم بارسونز الفعل إلى أربع أنساق كبرى:

- النسق البيولوجي Le système biologique : هو الحاجات البيولوجية لبقاء المتعضية، وهي حاجات ضرورية وحيوية لا يمكنك للبشر العيش دونها، تفرض هذه الحاجات تكيف الفاعلين مع بيئتهم الخارجية.

(1) بيار بونت وميشال إيزار وآخرون، معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، تر: مصباح الصمد، ط2،

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع مجد، لبنان، 2011، ص800

(2) نفس المرجع، ص801

(3) يمكن العودة إلى محمد عبد المعبود مرسي، مرجع سابق

- نسق الشخصية Le système de la personnalité: هو مجموع علاقات الفاعل الاجتماعية، الآخر عند بارسونز ضروري في نمو الذات لدى الأفراد بفضل عملية التفاعل الاجتماعي، العلاقات الاجتماعية تتحد بالمراكز والأدوار، المركز يحدد مكانة الفاعل في النسق، والدور يحدد سلوك الفاعل فيه، سلوك الفاعل مؤثر جدا في النسق من الناحية الوظيفية ما دامت الذات تنمو وتتشكل في علاقتها مع الآخر.

- النسق الاجتماعي Le système social: هو نسيج العلاقات بين الفاعلين الاجتماعيين المتفاعلين فيما بينهم.

- النسق الثقافي Le système culturel: يتكون بدوره من ثلاث أنساق فرعية هي الأفكار والمعتقدات، الرموز التعبيرية، القيم، الثقافة تظهر في نماذج وأنماط تشكل بيئة للسلوك، أنماط المعتقدات تتمثل في مختلف الاتجاهات والتصورات والآراء، أنماط الرموز تتمثل في مختلف أشكال اللغة من كلام وإيماءات وإيحاءات... ومختلف أشكال الفن، أنماط القيم وتتمثل في مختلف الأحكام العامة والفرعية والتقدير والمعايير...

وظائف النسق الأربعة AGIL :

التكيف Adaptation	تحقيق الهدف Goal Attainment
الاقتصاد	النظام السياسي
النظام التعليمي، الدين، الأسرة	النظام القانوني

التكامل Integration Latent pattern maintenance حفظ النمط

نموذج الوظائف الأربعة لدى بارسونز (1)

A- التكيف Adaptation: هي حالة استعادة التوازن عندما تحدث توترات داخل النسق أو ما يطلق عليه بارسونز مواجهة متطلبات البقاء وتجنب متطلبات النزاع وهي مرتبطة أساسا بعلاقة النسق ببيئته الخارجية، ويعتقد بارسونز أن التكيف يتعلق أكثر بالنشاطات الوسييلية، فيحدث التكيف عند تكامل الوسيلة والغاية، المدخلات والمخرجات، يعالج قصور التكيف في هذه الحالة بالاستعانة بمساعدة أنساق أخرى، تتعلق هذه الوظيفة بالنسق البيولوجي، فالعضوية تحتاج إلى التكيف مع بيئتها الخارجية من برودة وحرارة وأمطار وجوع...

(1) مأخوذ عن رث ولاس وألسون وولف، مرجع سابق، ص 86

G- تحقيق الأهداف Goal Attainment: يظهر في الإشباع الجماعي أو المجتمعي المتعلق بالغايات المشتركة والمصلحة العامة، والمجتمعات تختلف في هذا كونها مجتمعات تقليدية متعاونة متضامنة فيكون تحقيق الهدف أكثر حضوراً، أو كونها مجتمعات رأسمالية ذات النزعة الفردانية المتضخمة فإن التكيف يكون فيها أكثر حضوراً، وتتعلق هذه الوظيفة بنسق الشخصية.

I- التكامل Integration: تتعلق بالإعتماد المتبادل بين عناصر وأجزاء النسق لتحقيق تكامله واستقراره، وتتعلق هذه الوظيفة بالنسق الاجتماعي مما يعني أنها وظيفة موجودة في جميع الأنساق الأخرى باعتبار النسق الاجتماعي نسق أكبر.

L- دعم النمط وإزالة التوتر Latent pattern maintenance: يتم من خلال وسائل التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي كآلية للحفاظ على استقرار المجتمع واستمرار النظام وهي متجسدة في الأسرة والتعليم والدين... وأيضاً من خلال القيم والمعايير والثقافة، يتم الحفاظ على النمط حالة تعرض النسق للتوترات والنزاعات التي تقوم داخله أو تأتي من خارجه، تتعلق هذه الوظيفة بالنسق الثقافي.

هذه الوظائف في نظره لازمة لجميع الأنساق، وسماها الملزمات الوظيفية التي تحقق إشباع الحاجات وتعيد التوازن وتدعم وجودها الذاتي كحالة مستمرة، والتي تعرض بسببها إلى نقد شديد ساهم في ظهور الوظيفة الجديدة، فإذا كانت تصلح في المجتمع الأمريكي فهي قد لا تصلح تماماً للمجتمعات الشرقية، كما أنها تفترض أن المجتمع يملك ضبط عالي وضغوطات أقل.

▪ روبرت ميرتون Robert King Merton (1910-2003):

عالم اجتماع أمريكي، هو أول عالم اجتماع يحصل على قلادة العلوم الوطنية الأمريكية، يعتبره الكثيرون من رواد علم اجتماع المعرفة، كما اختص أيضاً في دراسة علم اجتماع التنظيمات وعلم اجتماع علم الاجتماع، هو مؤسس تقنية البحث focus group أي جماعات النقاش حيث تكون المقابلة مركزة ومعقدة l'entretien focalisé وهي تقنية في البحوث الكيفية التي تختص بدراسة الآراء والاتجاهات وتحليل الدعاية والاتصال الجماهيري التي استلهمها من علم النفس، من أشهر كتبه النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعي Social Theory and Social Structure سنة 1949 قدم فيه تحليله للأسباب التي تدفع البعض للمسايرة الاجتماعية في حين يميل البعض إلى المغايرة، تتلمذ على يد بارسونز وتأثر به كثيراً لكنه اعتبر سوسولوجياً أستاذه غير ناضجة كفاية لتكون نظرية MACRO فعمل على تجديد وتطوير الفكر الوظيفي والسوسولوجي عموماً وعمد إلى الدراسات MICRO.

قدم ميرتون إضافات مهمة صنعت شهرته الكبيرة في حقل السوسولوجيا، لقد انتقد ميرتون الوظيفية كونها ترى أن كل عناصر النسق أياً كان سياسي أو ديني أو

ثقافي... وظيفية في علاقتها بالنسق ككل وأن كل عنصر ذا ضرورة وظيفية حتما لاستمرار النسق، وقال أن بعض العناصر قد لا تكون وظيفية للنسق ككل وإنما لجزء منه فقط، كما أن بعض العناصر قد تكون ذات وظائف سلبية على النسق ككل مثل الدين في المجتمعات الطائفية حيث يصبح سبب للنزاع وليس للوحدة، وقال أن العنصر الواحد قد يؤدي عدّة وظائف وليس وظيفة واحدة فقط مثل اللباس فهو ذا وظيفة فيزيقية يقي من البرد أو الحر وذا وظيفة جمالية ودينية وثقافية... كما أن الوظيفة الواحدة قد تقوم بها عدّة عناصر وليس عنصر واحد فقط⁽¹⁾ مثل التنشئة الاجتماعية داخل المجتمع تقوم بها عدة مؤسسات كالأسرة والمدرسة والمسجد، وأن بعض الوظائف قد تكون ظاهرة Fonction Manifeste وأخرى تكون خفية Fonction Latente التلفزيون وظيفته الظاهرة الإعلام ووظيفته الخفية التطويق والسيطرة الاجتماعية، هذا الطرح "الميرتوني" يعني أن مسألة التحليل الوظيفي مسألة تتعلق بالجانب الأمبريقي فالكشف عن العناصر الوظيفية وعن العناصر ذات الوظائف السلبية وعن الوظائف المعلنة والخفية تتعلق بالبحث الميداني وليس بالحدوس.

والإضافة الأكثر شهرة لميرتون تتعلق بالمعوقات الوظيفية Dysfonctions Fonctionnelles، السؤال الذي يجب أن يُطرح بالنسبة لميرتون عند البحث في وظيفوية عنصر من عناصر النسق هو وظيفي بالنسبة لمن؟ فقد يكون العنصر A وظيفي بالنسبة لـ X ومعوق بالنسبة لـ Y فهناك احتمال مزدوج في هذه الحالة إمكانية تكيف النسق أو اختلاله، مثلا ديموقراطية التعليم في الجزائر هي وظيفية لأفراد المجتمع إذ فتحت لهم باب التعليم بجميع مستوياته وفتحت لهم اختيارات متنوعة لبناء مستقبلهم ووظيفية أيضا بالنسبة للمهن ذات التأهيل العالي لكنها معوق وظيفي بالنسبة للمهن اليدوية والحرفية وللزراعة التي تعاني من نقص اليد العاملة.

تناول ميرتون أيضا الانحراف الاجتماعي La Déviation Sociale التي طرحها دوركايم بشكل آخر تحت مسمى الأنوميا الاجتماعية كما سبق الذكر، فعند ميرتون الانحراف الاجتماعي هو <<الإنفصال بين الأهداف الثقافية والوسائل الشرعية اللازمة لبلوغها>>⁽²⁾، المجتمع والنسق الثقافي يضيفان صفة المشروعية على الأهداف والوسائل لتحقيق حاجات الأفراد والجماعات بحيث يكون كلاهما مشروعاً ومتوافقاً، غير أنه قد يحدث شرخ بين الأهداف المرغوبة وتلك المحددة ثقافياً وبين الوسائل المرغوبة ثقافياً والمتاحة واقعياً، وبين الأهداف والوسائل عموماً، هذا الوضع يضع بعض عناصر المجتمع تحت ضغوطات ينجر عنها حدوث أزمات

(1) جان بيار دوران وروبير فايل، علم الاجتماع المعاصر، تر: ميلود طواهري، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع-دار الروافد الثقافية ناشرون، الجزائر-لبنان، 2012، ص188.189
(2) رث ولاس و ألسون وولف، مرجع سابق، ص 110

اجتماعية، في هذه الحالة يحدث تكيف الأفراد حسب ميرتون وفق نماذج استجابات سلوكية نوجزها في هذا الجدول ضمن مثال متعلق بالنظام التعليمي:

أمثلة	حالة النسق	نماذج التكيف	حالة التكيف	الوسائل المستخدمة	الأهداف الثقافية
النجاح العلمي يتحقق بالإجتهاد	حالة سوية/استقرار النسق التعليمي	الإمتثال Conformity	توافق بين الأهداف والوسائل	مقبولة	مقبولة
النجاح العلمي مشروع لكن يتحقق بابتكار طرق الغش	حالة إنحراف اجتماعي/تخلخل النسق التعليمي	الإبتكار Innovation	الوسائل غير مشروعة والأهداف مشروعة	مرفوضة	مقبولة
الحصول على الشهادة للتفاخر وليس كفكرة نجاح علمي	حالة إنحراف اجتماعي/تخلخل النسق التعليمي	الطقوسية Ritualism	الأهداف غير مشروعة والوسائل مشروعة	مقبولة	مرفوضة
الحصول على الشهادة للتفاخر دون نجاح علمي	حالة إنحراف اجتماعي/تخلخل النسق التعليمي	الإنسحابية Retreatism	الأهداف غير مشروعة وكذلك الوسائل	مرفوضة	مرفوضة
ثورة لتغيير الوضع القائم	حالة إنحراف اجتماعي/تخلخل النسق التعليمي	التمرد Rebellion	بعض الأهداف وبعض الوسائل غير مشروعة	خليط من القبول والرفض	خليط من القبول والرفض

جدول مطور من طرف الباحثة استنادا إلى جدول ميرتون (1)

هذه النماذج استقاها ميرتون من المجتمع الأمريكي وهي تُظهر وظيفوية الفكر الميرتوني الذي يعتبر الإمتثال هو حالة استقرار النسق الوحيدة كحالة سوية للحفاظ على النمط القائم، وهي نماذج للنقد والمناقشة. هناك وظيفويون آخرون حدثيون لا يمكن التطرق لهم جميعا جون ديوي، جفري ألكسندر، نيل سلمسر، نيكولاس لومان، بول كولومي...

(1) Robert K. Merton, Social Theory and Social Structure, The Free Press- Collier Macmillan Publishers, New York- London, 1968, p194

المدرسة الوظيفية المحور الثاني: التصور المنهجي العنصر الأول: القواعد المنهجية والنموذج التصوري

I/ القواعد المنهجية الاسترشادية للمدرسة الوظيفية:

نوضح أولاً أن هذا التصور المنهجي لن يكون دوركيميا ولا بارسونزياً ولا مالفينوسكياً ولا ميرتونياً بل هو يضم أهم الرؤى المنهجية المشتركة لكل مؤسسي ورواد وأصحاب المدرسة الوظيفية التقليدية والحديثة.

يقول ميرتون نقلاً عن أحمد القصير <> إن نموذج المنظر الاجتماعي الذي يخلق في سماء الأفكار التي لا تدنسها الوقائع يصبح بالياً بنفس السرعة التي تصيب أي باحث يتسلح بصحيفة استبيان وينكب على إحصاءات منعزلة لا معنى لها <>⁽¹⁾، هذا الكلام يظهر التصور المنهجي لهذه المدرسة الذي يربط بين المنظور الكلاسيكي للمدرسة القائم على الدراسات الماكروسوسولوجية والمنظور الحديث لها القائم على الدراسات الميكروسوسولوجية، فهي تنقسم إلى مستويين منهجيين.

I/1- مستوى الدراسات الماكروسوسولوجية (دراسة الوحدات الاجتماعية الكبرى)

في هذا المستوى أهم مبدأ منهجي هو تناول الظواهر في كليتها وشمولييتها حتى وإن كنا بصدد دراسة عنصر من عناصر النسق الكلي فلا يتم ذلك إلا بالنظر إليه ضمن تلك الكلية، ويترتب عن هذا مجموعة من القواعد المنهجية هي:

- ملاحظة الوقائع المتعلقة بافتراضات المدرسة الوظيفية ذات التوجه الماكروسوسولوجي القادم ذكرها في النموذج التصوري للمدرسة والقيام بجمع الأدلة التي تؤيد الفروض أو تنفيها.

- تحديد الإطار المرجعي لنسق الفعل أو طبيعته وذلك بالتمييز الواضح والدقيق بين وجهة نظر الفاعلين واتجاهاتهم وبنية الموقف الاجتماعي، فإطار النسق من وجهة النظر هذه هو هذا التمييز بين مقولة دوافع الفاعلين الذاتية ومقولة المواقف الاجتماعية الموضوعية، ويعتبر بارسونز تحديد هذا الإطار من أهم الشروط المنهجية في التحليل الوظيفي، فهذا الشرط يتيح تصنيف وتبويب وحدات الفعل ونماذج وطبيعته واتجاهه ومدى ملاءمته مع الموقف الاجتماعي، أي مدى مطابقته مع قيم ومعايير المجتمع فيكون الاستقرار أو العكس، وبالتالي قدرته على أداء وظيفته أم لا، ومعرفة علاقاته المتبادلة مع أنساق أخرى⁽²⁾.

(1) أحمد القصير، منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية والبنوية، ط3، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2012، ص101

(2) محمد عبد المعبود مرسي، مرجع سابق، ص141.143

- الإعتدال على المنهج التاريخي المقارن كبديل للتجربة، فالمقارنة تظهر خصائص بناء الأنساق وحاجاتها ووظائفها ونكتشف قواعد إدارة التوتر أو التكيف والثبات، بحيث يقوم الباحث بإجراء مقارنات منظمة بين الظواهر المتشابهة داخل مجتمعات مختلفة، شكل ووظائف الأسرة مثلا داخل المجتمعات الغربية والمجتمعات العربية.
- إجراء مقارنات داخل المجتمع نفسه مثلا وظائف الأسرة التقليدية ووظائف الأسرة الحديثة، هذه المقارنات تكشف عن الوظائف التي تتجه نحو تدعيم النسق واستقراره وأساليب تكيفه.

- تستخدم الوظيفية الماكروسوسولوجية التصور كإجراء منهجي عقلي لتحليل الظواهر الاجتماعية، أي أن الباحث يضع نموذج من التصورات العقلية المجردة حول الظاهرة محل الدراسة في حالة قيامها بوظائفها أو إخلالها بها، كأن يضع الباحث نموذج تصوري حول الإختلالات الوظيفية التي يمكنها أن تحدث داخل الأسرة وتؤدي إلى الطلاق، وما على الباحث إلا جمع الوقائع التي تثبت أو تنفي ذلك.
- دراسة حالة للتوتر والصراع داخل النسق لمعرفة آثار التوتر على استقرار النسق وأسباب تلك التوترات أو أساليب التكيف في حالة استعادة الاستقرار.

2/I- مستوى الدراسات الميكروسوسولوجية (دراسة الوحدات الاجتماعية المتوسطة والصغرى)

في هذا المستوى أهم مبدأ منهجي هو تناول الظواهر ليس في كليتها وشموليتها وإنما يتم دراسة عناصر فقط معينة من الظاهرة، ويترتب عن هذا مجموعة من القواعد المنهجية هي:

- ملاحظة الوقائع المتعلقة بافتراضات المدرسة الوظيفية ذات التوجه الميكروسوسولوجي القادم ذكرها في النموذج التصوري للمدرسة والقيام بجمع الأدلة التي تؤيد تلك الفروض أو تنفيها.

- هذا المستوى من الدراسات يقوم على الجانب الأمبريقي، بمعنى إمكانية القيام بدراسات ميدانية أمبريقية نعتمد فيها على الملاحظة وعلى تقنيات البحث الأخرى كالإستبيان والمقابلة التي يمكنها أن تساعدنا على الكشف عن:

- ✓ العناصر الوظيفية داخل النسق
- ✓ العناصر ذات الوظائف السلبية والعناصر ذات الوظائف الإيجابية
- ✓ الوظائف المعلنة والوظائف الخفية.

✓ المعوقات الوظيفية التي تقلل من تكيف النسق

- في هذا المستوى أيضا يستخدم النموذج التصوري العقلي كأداة منهجية في الكشف عن الإنحراف الاجتماعي كما فعل ميرتون حيث صاغ نموذج أنماط التكيف السوي والمنحرف.

II / النموذج التصوري للمدرسة الوظيفية:

تشكل تاريخ المدرسة الوظيفية من تيارين أساسيين تيار كلاسيكي يهتم بدراسة الوحدات الاجتماعية الكبرى macrosociologie يقوده دوركايم وبارسونز، وتيار حديثي يهتم بدراسة الوحدات الاجتماعية المتوسطة والصغرى microsociologie ويقودها روبير ميرتون وجيفري ألكسندر، كلاهما يملك نموذج تصوري للظواهر الاجتماعية أو مجموعة افتراضات أساسية تقوم عليها مقارنة كل واحد منهما لكنهما يشتركان حتما في التصور العام.

II / 1- النموذج التصوري لتيار الدراسات الوظيفية الماكروسوسيولوجية (مستلهم بتصرف كبير عن إرفنج زايثلن) (1):

يقوم هذا التيار الكلاسيكي على الفروض والتصورات التالية:

- يتكون المجتمع أو النسق أو المنظومة من عناصر مترابطة تشكل كلية، وكل عنصر من عناصر النسق يعتمد على بقية العناصر المشكلة للنسق.
- كل نسق له مجموعة من الحاجات الضرورية يجب أن تلبى ليستمر النسق ويدوم ويبقى في حالة توازن.

- كل عنصر من عناصر النسق له وظيفة، وبالتالي يمكن تحليل النسق وظيفويا إلى عناصر أولية لكل منها وظيفة.

- رغم اختلاف وظائف العناصر المشكلة للنسق إلا أنها متكاملة فيما بينها، وظيفة الإدارة التعليمية تختلف عن وظيفة المناهج التعليمية غير أنهما يكملان بعضهما البعض ضمن النسق التعليمي، وتقسيم العمل مثلا قضية وظيفية لأنه يؤدي إلى التكامل الاجتماعي والتضامن العضوي كما سبق الذكر مع دوركايم، فكل عنصر هو وظيفي بالنسبة للنسق العام.

- كل وظيفة هي إشباع حاجة من حاجات النسق أو عناصر النسق، وقد تكون الحاجات وسيليه كما قد تكون وجدانية، فداخل الأسرة حسب بارسونز هناك حاجات وسيليه يقوم الأب بتأمينها لأفراد الأسرة كالغذاء وغيره، وهناك حاجات وجدانية تقوم الأم بتأمينها كالعناية والرعاية النفسية وغيرها.

- جميع عناصر النسق ضرورية ولا يمكن الإستغناء عنها.

II / 2- النموذج التصوري لتيار الدراسات الوظيفية الميكروسويولوجية (مستلهم بتصرف كبير عن جوناثان تيرنر) (1):

(1) إرفنج زايثلن، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع دراسة نقدية، تر: محمود عودة وإبراهيم عثمان، دط، دار السلاسل، الكويت، 1989، ص 23.15

الفروض والتصورات التي يطرحها تيار الوظيفية الحديثة كتجديد للمدرسة وتطوير للفروض والتصورات السابقة هي كالتالي:

- ليس بالضرورة أن يكون كل عنصر وظيفيا بالنسبة لعناصر النسق ككل، فقد يكون وظيفي لمجموعة عناصر وغير وظيفي لعناصر أخرى، كما قد يكون ضارا ومعيقا لبعضها الآخر، فالقواعد البيروقراطية في المجتمع الجزائري قد تكون وظيفية للمسؤولين الإداريين ومصالحهم فهي تريحهم من البحث عن آليات المرونة وتحمل أعبائها، في حين القواعد البيروقراطية قد تكون غير وظيفية لبقية العمال بسبب تصلبها وتشددتها وقد تكون معيقة وظيفيا للإبداع والتجديد.

- وجود عدة بدائل وظيفية فالعنصر الواحد قد تكون له عدة وظائف، فالمدرسة لها وظيفة تعليمية، لها وظيفة تربوية، لها وظيفة اجتماعية، والوظيفة الواحدة يمكن أن تُنجز من طرف عدة عناصر، فالتنشئة الاجتماعية تقوم بها المدرسة كما تقوم بها الأسرة كما يقوم بها المسجد...

- ليس بالضرورة أن تكون جميع عناصر النسق ضرورية ولا يمكن الإستغناء عنها، بمعنى أنه ليست كل المؤسسات الموجودة في المجتمع ضرورية ووظيفية بالنسبة لجميع عناصر المجتمع، فبعض الشباب تُهتبر المؤسسة الجامعية ليست ضرورية ولا وظيفية بالنسبة لهم على الرغم من حصولهم على البكالوريا فالتعليم المهني بديل وظيفي مناسب لهم.

- يوجد وظائف ظاهرة يمكن ملاحظتها كواقع موضوعي، ويوجد وظائف كامنه نستشفها من خلال تحليل الوضع الاجتماعي وتجاوز السوسيولوجيا الإعتباطية والبحث خلف النتائج الظاهرة للوصول إلى النتائج الخفية، فدوركايم مثلا درس الوظيفة الظاهرة للعقوبات الردعية والمتمثلة في الثواب والعقاب وردع المجرمين في حين الوظيفة الكامنة لها هي تحقيق التماسك الاجتماعي واستقرار المجتمع.

إن الطرح الحديث أقلّ تعقيدا وأكثر مرونة إذ يتعاطى مع الصراع والتوترات ويمكنه تفسير التغيّر والانحراف، كما أنه الأقدر على النزول إلى الميدان الإمبريقي لتفسير الواقع، وعرضنا للأمريين إنما هو توضيح للطلبة كيف تطورت المنظورات والتصورات الوظيفية، فالتصور الثاني ما هو إلا وليد نقد التصور الأول مع تقديم الإضافات المجددة للمدرسة.

(1) جوناثان تيرنر، بناء نظرية علم الاجتماع، تر: محمد سعيد فرح، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 2000، ص84.76

المدرسة الوظيفية المحور الثاني: التصور المنهجي العنصر الثاني: مراحل التحليل ونسق التفسير

I / مراحل التحليل للمدرسة الوظيفية (1):

تعتبر مبادئ التحليل الوظيفي التي طوّرها ميرتون مهمة جدا، مازالت الأكثر استعمالا لدى الباحثين عند دراسة الظواهر في إطار المقاربة الوظيفية، لذا سننتمد أساسا على كتاب روبير مرتون Social Theory and Social Structure لعرض وشرح نموذج التحليل الوظيفي، وهي إحدى عشر مبدأ في الأصل لكننا وجدنا أن بعضها هو نقد لسابقه وبعضها يدخل في إطار الإجراءات المنهجية السابق ذكرها والبعض أمكننا دمجه معا لأنه يصب في نفس المعنى وبالتالي هي كالتالي:

1- وحدة التحليل هي العنصر النمطي، بمعنى المتكرر الذي يشكل نمط معين كالأدوار الاجتماعية، البنيات الاجتماعية، المعايير الاجتماعية، الأنماط الثقافية...

2- تحديد دوافع التصرف الذاتي، أو بمعنى أوضح تحديد الدوافع الذاتية خلف الفعل الاجتماعي أو الموقف أو النشاط... (فالعنصر الاجتماعي يغطي مساحة أنساق المجتمع جميعها) حتى لا تختلط خطأ مع مفاهيم النتائج الموضوعية (الوظائف والإختلالات) للعنصر الاجتماعي، هذه الأخيرة هي موضوع التحليل الوظيفي، يجب ألا يخلط الباحث بين الجوانب الذاتية للدوافع التي تكمن خلف نشاطات الأفراد والجوانب الموضوعية لوظائف النمط، يجب أن يقدم الباحث تمييزاً مفاهيمياً بين الحالات التي يتزامن فيها الهدف الموضوعي الشخصي مع النتيجة الموضوعية للوظيفة والحالات التي تتباعد فيها، هذا يساعد الباحث على الكشف عن الوظائف الكامنة، فالوظائف الظاهرة هي النتائج الموضوعية التي تؤدي إلى تكيف النظام أو تعديله وتغييره وهي النتائج المقصودة التي يعترف بها المشاركون في النظام، في حين الوظائف الكامنة هي النتائج غير المقصودة وغير المعترف بها.

3- تحديد النتائج الموضوعية للعنصر الاجتماعي سواء الوظائف أو الإختلالات، يجب ألا يميل الباحث إلى جمع الملاحظات عن الوظائف الإيجابية فقط للعنصر الاجتماعي وإنما عليه أن يسجل الإختلالات الوظيفية أيضا.

4- تحديد الوحدة التي يكون عنصر معين وظيفيا بالنسبة لها، قلنا سابقا في النموذج التصوري أنه يوجد عناصر قد تكون وظيفية للبعض وغير وظيفية للبعض ومعوقة للبعض الآخر، هذا يستدعي البحث في كل الوحدات الخاضعة لوظيفية العنصر المدروس، أي البحث في الوظيفة الثقافية، والوظيفة النفسية، والوظيفة الدينية، الوظيفة الاجتماعية للعنصر المدروس...

(1) Robert K. Merton, op.cit, p104.108

- 5- تحديد الآليات التي يتم من خلالها القيام بالوظائف، هذا يستدعي تبيان مفصل وملموس للآليات الاجتماعية التي تعمل على أداء وظيفة معينة، مثل تجزئة الأدوار الاجتماعية، الترتيب الهرمي للقيم، التقسيم الاجتماعي للعمل...
- 6- دراسة التغير وهذا يتعلق بمفهوم الخلل الوظيفي الذي يتضمن مفهوم الضغوطات والتوتر كمقاربة تحليلية لدراسة الديناميات والتغير، فملاحظة الاختلالات الموجودة وقياس تراكم الضغوطات في نسق معين هو كشف عن عدم الاستقرار، بل ويكشف أيضا عن الاتجاهات الأكثر احتمالا للتغير الاجتماعي.
- 7- تحديد البدائل الوظيفية الممكنة للنسق أو لبعض عناصره، والمقصود بها هو إمكانية القيام بنفس الوظيفة من طرف عدة عناصر، فعند دراستنا لأنماط التنشئة الاجتماعية لا يمكن الحديث عن الأسرة فقط بل هناك بدائل كثيرة كرياض الأطفال، المدارس، الكشافة...، كما لا يمكن الحديث عن وظيفة الأم فقط كمرربة بل هناك الجدة، البنت البكر، العمة، الخالة...
- 8- لم يعد بالإمكان القيام بتحليل وظيفي دون أن يكون بنيوي في نفس الوقت، فالوظائف لا تقوم في الفراغ وإنما هي موجودة في الأنساق والمنظومات كأبنية.

II / نموذج التفسير الوظيفي:

- تقوم فكرة التفسير الوظيفي على مفهوم نتائج وأثار الفعل، فهو ليس تفسير سببي يربط الأسباب بالمسببات، وإنما يفسر الوظيفيون استمرار الأنساق والأبنية والنظم من خلال ما تؤديه من وظائف أي من خلال نتائجها وأثارها، تقول عالمة الاجتماع الأمريكية فرانسيسكا كانسيان Francesca M. Cancian نقلا عن زايتلن >>... في ضوء النموذج النظري للتفسير الوظيفي يجري تفسير النمط الاجتماعي (س) من خلال آثاره ونتائجه وليس في ضوء أسبابه، والمقصود بالسبب هنا الشروط الضرورية أو الكافية التي تسبق النمط (س) <<(1)، هذا التوجه يقوم أساسا على عمق المقاربة الوظيفية التي ترى أن المجتمعات والمنظومات والأنساق عليها أن تتصف بخصائص معينة حتى تستطيع البقاء والإستمرار، وهذه الخصائص متعلقة بالوظائف التي تقوم بها لتلبية الحاجات المتنوعة، وفي هذه الحالة نبحث عن الإنتظامات والأنماط العامة.

- صورة أخرى من صور التفسير الوظيفي هو القيام بالمطابقة بين النموذج التصوري القائم على افتراضات عقلية عن الأنماط وبين النسق الاجتماعي الملاحظ، يشكّل التتابع وصف مهم ودقيق للنسق فليست الملاحظة فقط هي الإجراء المنهجي لدى المدرسة الوظيفية فالتصورات العقلية هي أيضا إجراء منهجي، كما فعل ميرتون في تحليله لأنماط التكيف، وكما فعل بارسونز في أنماط حاجات النسق السابق الذكر.

(1) إرفنج زايتلن، مرجع سابق، ص25

- يقوم التفسير الوظيفي أيضا على تحليل التغير وهو البحث في عوامل ظهور أو اختفاء عنصر أو مجموعة من عناصر النسق، بفعل عوامل داخلية كتغير داخلي في وظائف النسق وتغير الأدوار مثل تغير دور المرأة في الأسرة الحديثة وتغير وظائف الأسرة الحديثة، وعوامل خارجية تعمل كمسرع لعمليات التغير الداخلي مثل إنتشار التكنولوجيا ووسائل الإتصال الحديثة أو عوامل التحديث عموما.

- التفسير الوظيفي لا يتعلق بالوظائف فقط وإنما أيضا بالأبنية إذ لا يمكن الفصل بينهما لا نظريا ولا واقعا.

نموذج عن التفسير الوظيفي مستلهم عن إحسان محمد الحسن عن جرائم النساء بتصرف كبير (1)

تحليل هذه الظاهرة ينطلق من فروض المدرسة الوظيفية التالية:

- تتكون الأنساق الاجتماعية من عناصر مترابطة.

- يجب أن تعكس تلك العناصر درجة تكامل وتوازن النسق.

- يؤدي عدم تكامل النسق إلى عدم توازنه.

- عدم توازن النسق يحدد أنماط الخلل غير المألوفة في النسق.

- الإنحراف ليس نتاج عدم السيطرة على الحاجات البيولوجية وإنما عن معوقات وظيفية في عناصر النسق.

العوامل الدافعة لإجرام النساء

هناك عوامل خارجية تتعلق بمحيط المرأة العام وهو المجتمع، وعوامل داخلية تتعلق بمحيط المرأة الخاص أي الأسرة، وعوامل تتعلق بالمرأة المجرمة ذاته تدفع النساء للجريمة، العوامل الخارجية هي البيئة الثقافية المجتمعية التي تنعدم فيها الوسائل أو تضعف لخلق بيئة تساعد على التكيف التوافقي السوي، مثل ضعف وسائل الضبط الاجتماعي، هشاشة النسق الديني بحيث لا يقوم بوظائفه الداعمة وتقديم المساعدة الاجتماعية، هشاشة منظومة التضامن الاجتماعي الرسمي وغير الرسمي، ضعف النسق القانوني...

العوامل الداخلية للأسرة تعتبر معوقات وظيفية قد تكون مشاحنات مستمرة مع الزوج، مع الوالدين... فقر شديد، طلاق، ترمّل... كل هذا الوضع يعتبر الحالة غير المألوفة لأسرة عادية طبيعية وإنما هو اختلالات أسرة مفككة وغير متكاملة، تؤدي إلى عدم توازن النسق الأسري.

عوامل تتعلق بالمرأة المجرمة ذاتها كالأمية، الإحباطات المتركمة على مستويات مختلفة إحباطات تتعلق بالزواج، إحباطات تتعلق بالأبناء، إحباطات تتعلق

(1) إحسان محمد الحسن، مرجع سابق، ص 60.59

بالوالدين، إحياتيات تتعلق بالمجتمع، إحياتيات تتعلق بالنسق الديني... فانحراف المرأة هو حل هروبي من جميع تلك الإحياتيات.

المعوقات الوظيفية الخارجية تؤدي إلى ضعف الإنضباط الوظيفي، بمعنى أن النسق العام غير قادر على الوفاء بمستلزماته الوظيفية، المعوقات الوظيفية في النسق الفرعي الذي هو الأسرة يؤدي إلى اختلالات داخلها، في ظل المعوقات الوظيفية الخارجية تُدفع الأنساق الفرعية إلى تكيف منحرف وهو الإجرام في مثالنا هذا، ولو كانت العوامل الخارجية تفي بمستلزماتها الوظيفية فإن معدل الإجرام ينخفض ومعدل التكيف السوي يرتفع، ضرورة التكامل بين وظائف النسق العام ووظائف النسق الفرعي واضحة.

نتائج إنحراف النساء هي الوظائف السلبية لذلك الإنحراف داخل النسق الفرعي والعام أي آثار جرائم النساء من تصدع القيم الاجتماعية، فقدان الثقة، إنخفاض الأمن.... غير أنه قد تكون له آثار إيجابية على عصابات الجريمة المنظمة التي تستغل النساء في تجارة الرقيق والمخدرات والسلاح.

III/ نقد المدرسة الوظيفية :

إنتقادات كثيرة جدا قدمت لهذه المدرسة مثلها مثل سابقتها، لذا نكرر نفس القول إن النقد تنظير جديد وتطوير للمدرسة يحتاج وحده لمطبوعة كاملة، هذا يجبرنا على ذكر أهم الإنتقادات.

- هي نظرية لا تاريخانية فهي لا تهتم بتاريخ الأبنية والأنساق والظواهر لعدم اهتمامها بفكرة التطور الاجتماعي، ونظرتها للتغير قائمة على فكرة الخلل وعدم التوازن.

- المبالغة في الاهتمام بدراسة الاستقرار حتى في دراستها للإختلالات، إذ تبحث من خلال الإختلالات عن ميكانزمات استعادة النظام والمحافظة على الوضع الراهن.

- عدم قدرة هذه المدرسة على التفسير السببي والإكتفاء بتحليل الآثار الاجتماعية، فهي لا تحلل العلاقة السببية بين المتغير س والمتغير ع وإنما تحلل آثار علاقة المتغير س بالمتغير ع، كما في المثال السابق آثار علاقة عدم وفاء النسق بالتزاماته الوظيفية بآثار الجريمة، لذا وصفت هذا المدرسة بالمدرسة التبيولوجية، أي القائمة على التصنيف والتنميط.

- وظيفوية ظاهرة أو عنصر ما يتعلق بمنظور الباحث نفسه مثل تحليل هاربرت غانس Herbert J. Gans للفقر على أنه ذا وظائف إيجابية كثيرة على المجتمع⁽¹⁾، هذا يعني أنه لا يوجد مقياس موضوعي تقيس به المدرسة وظيفوية عنصر ما أو عدم وظيفيته.

- فكرة الإجماع التي تتناولها الوظيفوية هي فكرة الأيديولوجية المهيمنة، وفكرة وظيفوية ظاهرة اجتماعية لبعض العناصر وعدم وظيفيتها للعناصر الأخرى وفكرة التكيف لا تحل هذا الإشكال.

- الفصل في كثير من الأحيان بين الوظيفة والبنية، وهذا حتى على مستوى العلوم الطبيعية التي تأثرت بها هذه المدرسة غير ممكن إذ لا يمكن الفصل بين العين ووظيفة الرؤية أو بين الرئتين ووظيفة التنفس.

ملخص عن المدرسة الوظيفية

في الشق الأول من المدرسة الوظيفية تناولنا نشأة هذه المدرسة متأثرة بالعلوم البيولوجية، التي تبحث في وظائف الأعضاء والأجهزة العضوية وتساندها في تكامل لا ينكره أحد مشكلة كلية واضحة، وفي خضم الصراعات الباردة والساخنة التي شهدتها نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ظهر من المفكرين من أولى اهتمامه بدراسة خفض التوترات الاجتماعية والنفسية والحفاظ على الاستقرار

(1) Herbert J. Gans, *The Positive Functions of Poverty*, American Journal of Sociology, Volume 78, Number 2, Sep, 1972, p 275.289.

الاجتماعي والنفسي، مستلهمين من المماثلة البيولوجية رؤية تكامل الأدوار وتساند الوظائف للحفاظ على استمرار التنظيمات واستقرار المجتمعات وتكيف الأفراد.

في الشق الثاني بسطنا التصورات المعرفية للمدرسة الوظيفية القائم على الرؤية الشمولية للظواهر في سياقاتها الكلية كنتائج للفعل وأداء الأدوار بعيدا عن تأثير الأبنية، ولأنها لا تهتم بالتغير والتطور فهي مقاربة لا تاريخانية تهتم بالإستقرار وإعادة إنتاج الأنساق والأنظمة، من ذلك المنطلق التصوري جاءت القواعد المنهجية باحثة عن الوظائف والأدوار، والتحليلات والتفسيرات باحثة عن حالات التكيف وخفض التوترات، بالبحث في الحاجات الضرورية للجماعات والأفراد وتلبيتها للحد من أي توتر قد يؤدي إلى خلخلة النظام وظهور الأنوميا الاجتماعية، ومن نقدها للنقيصة التي وقعت فيها البنيوية إذ حصرت نفسها في الأبنية دون الوظائف، وقعت الوظيفية في نفس النقيصة إذ حصرت نفسها في الوظائف دون الأبنية فجاها كلاهما معلقان في فراغ، إلى أن وُلدت الحركة التصحيحية بمزاوجة المقاربتين تحت مسمى البنيوية الوظيفية.

مراجع المدرسة الوظيفية

- 1- أحمد القصير، منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية والبنوية، ط3، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2012.
- 2- إرفنج زايطن، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع دراسة نقدية، تر: محمود عودة وإبراهيم عثمان، دط، دار السلاسل، الكويت، 1989.
- 3- بيار بونت وآخرون، معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، تر: مصباح الصمد، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات للنشر والتوزيع مجد، لبنان، 2011.
- 4- جان بيار دوران وروبير فايل، علم الاجتماع المعاصر، تر: ميلود طواهري، ط1، ابن النديم-دار الروافد الثقافية ناشرون، الجزائر-لبنان، 2012.
- 5- جوناثان تيرنر، بناء نظرية علم الاجتماع، تر: محمد سعيد فرح، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 2000.
- 6- رث ولاس وألسون وولف، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، تر: محمد عبد الكريم الحوراني، ط1، دار مجدلاوي، الأردن، 2012.
- 7- شارلوت سيمور-سميث، موسوعة علم الإنسان المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية، تر: علياء شكري وآخرون، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009.
- 8- فيليب جونز، النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية، تر: محمد ياسر الخواجة، ط1، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010.
- 9- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي، القاموس المحيط، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005.
- 10- محمد عبد المعبود مرسي، علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز بين نظريتي الفعل والنسق الاجتماعي (دراسة تحليلية نقدية)، ط1، مكتبة العليقي الحديثة، القصيم، السعودية، 1984.

11- Emile Durkheim, Le Suicide, éd Félix Alcan, Paris 1897

12- Emile Durkheim, de La Division du Travail Social, 2^e éd, Quadrige/PUF, Paris, 1991

13- Herbert J. Gans, The Positive Functions of Poverty, American Journal of Sociology, Volume 78, Number 2, Sep, 1972, pp 275.289.

14- Robert K. Merton, Social Theory and Social Structure, The Free Press- Collier Macmillan Publishers, New York- London, 196

المدرسة الإسلامية المحور الأول: النشأة، التاريخ، والرواد أهداف الدرس المتعلق بالمدرسة الإسلامية:

لفظة مدرسة إسلامية تكشف بعدها الديني رغم أنها تريد أن تدرس المجتمع، والمجتمع فيه اختلافات بين المسلمين أنفسهم على جميع المستويات الاجتماعية، والنفسية، والفكرية، وحتى على مستوى المذاهب الدينية، فنحن لسنا بصدد دراسة الدين الإسلامي كوشي من السماء، وإنما بصدد دراسة المجتمعات المسلمة من تدافع وتعاون، تشارك وتناحر، تعارف وتنافر...

كان لي نقاش مع الطلبة في مقياس علم اجتماع الفن إذ تناولنا مختلف المدارس الغربية، ومررت الحصص حيوية فيها كثير من النقاش والعتاء والنقد، وعندما وصلنا إلى المدرسة الإسلامية وجدت كثير من الإختلاف بين الطلبة والحيرة والنقاش الحاد المتشنج أحيانا، وقاعدة الإختلاف كانت حول كلمة إسلامية، فكل معرفة ترتبط بـ "إسلامية" تتحول إلى معرفة مقدسة لا تقبل النقاش والدحض مع مرور الزمن، والحق أن الطلبة معهم كل الحق في ذلك، فعندما بدأنا في تحليل الفلسفات الإسلامية حول الفن وجدنا لغة الوعظ والإرشاد حاضرة بقوة ولغة التحريم حاضرة أكثر، وخلص الأغلبية إلى اقتراح مسمى نظرة المسلمين للفن حتى لا نقع في فخ الآراء المقدسة.

بدل أن نقول المدرسة الإسلامية فترتبط مباشرة بالدين كمقدس نقول مدرسة المسلمين المعرفية، فنربطها هكذا برؤية الإنسان المسلم على تنوع هذه الرؤية كتفاصيل ووحدتها كبراديعم ينظر إلى الكون بشكل مخالف للفكر الغربي المهيمن، الفكر الإنساني ناقص يتغير ويتطور ويتبدل، والمجتمعات تتغير وتتطور، فهي إذن مدرسة المسلمين الفكرية، تظهر رؤية روحية بديلة للرؤية المادية، متناغمة مع الوحي لا ناشزة عنه، متصلة بالسماء لا منقطعة عنه، باحثة عن غايات ومآلات لا عدمية ولا عبثية كما هو الشأن في الفكر الغربي المادي وقولهم >> مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ << (الجاثية، 24)، هي مقاربة هامة جدا تحمل نموذج معرفي ذا أبعاد إنسانية لا يلغي الجانب المادي، وتفتح آفاق جديدة لمشكلات هذا العالم المعولم.

I/ تعريف المدرسة:

كما يقول الدكتور محمد عمارة هذه مدرسة ملتبسة لارتباطها بشعار ديني لذا يجب تحليل أوجه الإلتباس وطرح نقيض اللبس المزعوم.

- هي ليست دين مقدس ثابت لا يتغير رغم تغير الحياة الإنسانية والاجتماعية، وإنما هي اجتهاد يحتمل الصواب ويحتمل الخطأ كسائر المعارف والمدارس المعرفية الأخرى.

- لا تعني الفصل التام بينها وبين المعارف الإنسانية بما فيها الغربية، لانعزل أنفسنا عن العالم فجميع المعارف فيها وعليها، حتى المعرفة الإسلامية تبقى للتمحيص والنقد والتطور.

- لا تعني إسلامية المعرفة إضافة الآيات والأحاديث إلى ما نراه في حدود فكرنا صائباً من الفكر الغربي فنصادق عليه، كما هو الشأن في موجة إعجاز القرآن الكريم التي تنتبع الإكتشافات الغربية ثم تبحث في الآيات القرآنية لتسقطها على الإكتشاف (1)، فيصبح المتغير دليل على صدقية الثابت في عملية مقلوبة للبحث.

هي معرفة لها رؤية كونية مخالفة للفسفات المادية والوضعية وكل فلسفة تفصل بين الخالق والمخلوق كالوضعية، أو تأله المخلوق وتجعله خالق كالماركسية والعلموية، أو تلغي الخالق تماماً كالنيتشوية، فهي إذن رؤية تربط الإنسان بخالقه، والأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة، والبداية بالنهاية، والأصل بالمآل، في نظرة شمولية للكون الصادر عن الواحد.

يعرفها محمد عمارة بقوله هي <<المذهب القائل بوجود علاقة بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية، والرافض لجعل الواقع والوجود وحده المصدر الوحيد للعلم الإنساني والمعرفة الإنسانية>> (2).

II / التاريخ والنشأة:

II/1 حركة الإصلاح النهضوي (القرن التاسع عشر والقرن العشرين):

عرف العالم العربي والإسلامي في القرن التاسع عشر موجة استعمار واسعة وفي بعض البلدان كالجزائر طال وجوده أكثر من قرن، الإحتكاك الجبري المفاجئ الذي وجد المسلمون أنفسهم فيه مع الغرب صنع أمامهم تحديات كبيرة، حضارة مادية متطورة، وفكر منفتح على شتى العلوم والأفكار الحديثة، طريقة حياة مختلفة وطريقة تفكير مختلف، دون أن نهمل دور البعثات العلمية نحو الغرب خاصة المصرية منها التي دفع بها محمد علي باشا والتي جعلت من المصريين قادة الإصلاح، ذلك الإحتكاك عرى العالم الإسلامي ليكشف عن حكومات استبدادية، وخرافات منتشرة، وتخلف في جميع الميادين العلمية والمادية، أمام هذا الوضع ظهر مجموعة من المصلحين الذين جعلوا مسار عملهم الفكري هو إعادة قراءة الواقع

(1) محمد عمارة، إسلامية المعرفة ماذا تعني، ط1، شركة نهضة مصر، مصر، 2007، ص6.4

(2) نفس المرجع، ص10

الإسلامي وفق التحديات الجديدة، والبحث عن مقاربات تستوعب تلك المتغيرات، وتسعى إلى استلهام الحضارة الغربية في ظل الشرط الإسلامي، أمثال مالك بن نبي (1905-1973)، محمد رشيد رضا (1865-1935)، عبد الرحمن الكواكبي (1855-1902)، محمد عبده (1849-1905)، رفاة الطهطاوي (1801-1873)، جمال الدين الأغباني (1838-1897)... وغيرهم.

II/2 جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين (القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين)

سنة 1964 تأسست جمعية الطلبة المسلمين من عرب أمريكا وكندا، تضم الجمعية جمعيات فرعية ترتبط بمختلف التخصصات العلمية، منها جمعية العلماء والمهندسين المسلمين، جمعية الأطباء المسلمين، وسنة 1972 تأسست جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين من طرف الإتحاد السابق الذكر تحت رئاسة أستاذ فلسفة الأديان الشهيد الفلسطيني إسماعيل راجي الفاروقي، تدعو إلى أسلمة المعرفة بما في ذلك العلوم الاجتماعية وعدم تفرغها من البعد القيمي وتفعيل البعد الإنساني العالمي للإسلام⁽¹⁾، ونشطت بإقامة ندوات ومؤتمرات، كانت تركز على إصلاح التعليم العالي في العالم الإسلامي وإعادة صياغة المعرفة نحو الرؤية الإسلامية للكون والإنسان.

II/3 المعهد العالمي للفكر الإسلامي (التأسيس لمفهوم أسلمة العلوم)

آلت الجهود البارزة التي بذلتها جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين إلى إنطلاق فكرة مدرسة إسلامية المعرفة في صورة منظمة سنة 1981 تحت رعاية المعهد العالمي للفكر الإسلامي كاستمرار للجمعية السالفة الذكر، تحت شعار قراءة الكتاب المسطور، أي الأصول المرجعية الإسلامية بما فيها الإجتهد في تلك الأصول، وقراءة الكتاب المنظور، أي قراءة الواقع والوقائع الإنسانية والطبيعية، وتفتق عن هذه الفكرة الدعوة إلى البحث في نموذج معرفي لفهم الأصول ونموذج إرشادي لمعرفة المنظور⁽²⁾، رواد هذا المشروع العلمي حامد ربيع (1924-1989)، منى أبو الفضل (1945-2008)، إسماعيل راجي الفاروقي (1921-1986)، طه جابر العلواني (1935-2016)، عبد الحميد أبو سليمان (1936- على قيد الحياة)، كاترين بولوك (كل ما نعرفه عنها هو أنها من أصول أسترالية أسلمت سنة 1994 وهي

(1) فتحي حسن ملكاوي وآخرون، إسماعيل الفاروقي وإسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي-دار الفتح، الولايات المتحدة الأمريكية-الأردن، 2014، ص27
(2) مركز الحضارة للدراسات السياسية، في تجديد العلوم الاجتماعية "بناء منظور معرفي وحضاري الفكرة والخبرة"، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، الجزء الثاني، 2016، ص530
يمكن أيضا العودة إلى طه جابر العلواني، الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2006

أستاذ العلوم السياسية بجامعة تورنتو، انضمت إلى جمعية العلماء الاجتماعيين سنة إسلامها، أشهر كتبها الذي صنع صيتها الذائع "نظرة الغرب إلى الحجاب" مترجم إلى العربية ومتوفر)...يعتبر هذا المشروع الفكري أكثرهم تنظيماً وطموحاً فهو يهدف إلى خلق جماعة علمية منظمة حول براديجم جديد حدائثي في نظرية المعرفة يربط الإنسان بخالقه، والكثير من الكتب التي تتناول أسلمة المعرفة في شتى التخصصات هي لأصحاب هذه الجماعة العلمية.
خطة عمل هذه الهيئة العلمية في نقاط هي (1):

- ✓ التوعية بأزمة الفكر الإسلامي ومنهجيته.
 - ✓ بلورة المفاهيم وإرساء أسس العلوم الاجتماعية والإنسانية من خلال المنظور الإسلامي.
 - ✓ تأصيل شمولية المنهج الإسلامي ليستوعب جميع العلوم.
 - ✓ التمكن من التراث الإسلامي
 - ✓ التمكن من العلوم الحديثة
- أي الإنطلاق بالفكر الإسلامي في مسار يقوده نحو تخطل جميع المعارف.
يوجد مفكرين آخرين عزفوا منفردين مثل الفيلسوف المبدع المغربي طه عبد الرحمن، الفيلسوف الجزائري محمد أركون، المفكر الجزائري مالك بن نبي، المفكر المغربي محمد عابد الجابري، الفيلسوف والمفكر الكبير المصري عبد الوهاب المسيري، الفيلسوف العراقي الشيعي محمد باقر الصدر وغيرهم، ويوجد أيضاً إرهابات قادمة من دول غير عربية مثل السياسي والمفكر الباكستاني أكبر أحمد، والإيراني المختص في علم الاجتماع وعلم الأديان علي شريعاتي، والفيلسوف الإيراني مرتضى مطهري، والأنثروبولوجية البريطانية المسلمة مريل وين دايفيز، والفرنسي المسلم رجاء غارودي، وقبل كل هؤلاء يتربع ابن خلدون على رأس القائمة كأول مؤسس لعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ في العالم الإسلامي قبل العالم الغربي بخمس قرون.

III/ بعض رواد المدرسة:

■ عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (1332-1406):

ولد بتونس لكن أصول عائلته تعود إلى اليمن، سليل عائلة علم وسياسة وجاه ونفوذ، درس في تونس إلى أن تخرّج من جامع الزيتونة منارة العلم في المغرب العربي ولم يبلغ الواحد والعشرين، تقلّد مناصب هامة في بلاط الحكم منذ العشرينات من عمره إلى غاية سنة 776، حيث قرر التفرغ في قلعة بني سلامة المعروفة عند

(1) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، إسلامية المعرفة "المبادئ العامة خطة عمل-الإنجازات، ط2، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، 1992، ص123.143

عامّة الجزائريين ب "تاوغزوت" التي تقع غرب مدينة فرندة حيث كتب المقدمة هناك، التي تعتبر تأسيس لعلم العمران وهي تسمية أعمق من علم الاجتماع وإن أنكر الغرب والمستعربين ذلك.

عرض جميع أفكار ابن خلدون في بضعة أسطر خرافة لا نؤمن بها، لذا نكتفي بعرض الأهم الذي له علاقة بالمقياس مباشرة وبشكل مبسط لأجل الفهم، وهو ما فعلناه منذ البداية في هذه المطبوعة.

علم العمران:

كل علم لا بد له من موضوع ومنهج ونموذج نظري تصوري ينطلق منها الباحث، نكتفي بموضوع ومنهج بن خلدون إذ ليس موضوع درسنا التصورات النظرية الخلدوني:

موضوع علم العمران:

عند الغرب موضوع علم الاجتماع هو الظواهر الاجتماعية، وتحديد اجتماعية الظاهرة حدث فيه خلاف كبير فجره دوركايم ابتداء من بحثه في ظاهرة الإنتحار مختطفا إياه من حضان علم النفس، وماكس فيبر يقسم الأفعال إلى فعل اجتماعي وهو السلوك المقصود، نية الفاعل وحدها تشهد على اجتماعيته، وفعل روتيني يدخل في إطار الأفعال المعتادة التي لم تعقدها النوايا لا الحسنة ولا السيئة فهي ليست أفعال اجتماعية البتة، ثم يأتي أنتوني جيدنز لينتصر للأفعال الروتينية ويدخلها مملكة العلوم الاجتماعية فالنية بالنسبة له قضية شائكة لا يمكن حلها بالسهولة الفيبرية عن طريق الأنماط الميثالية، واستمر الإشكال في العصر الحديث مع ريمون بودون في الفردانية المنهجية حيث الظاهرة الاجتماعية هي ذرات من الفواعيل القادرة على خلق آثار غير متوقعة تنتظم عبر الزمن مشكلة ظاهرة اجتماعية.

عند بن خلدون موضوع علم العمران هو الاجتماع الإنساني، فلأن البشر متعاونون بالضرورة للضرورة لذلك فهم مجتمعون، فابن خلدون يجعل التعاون مفتاح الاجتماع وليس الاجتماع مفتاح التعاون، فهو تعاون عضوي لحاجة البشر إلى بعضهم بعض لحفظ وجودهم، فلم يجعل الله معاش الإنسان فطري كما هو الشأن لدى الحيوانات بستثناء بعضها كالنمل والنحل المحتاجة إلى التعاون والاجتماع.

الاجتماع ضرورة لحفظ الوجود الإنساني، فالاجتماع من هذه الناحية ظاهرة طبيعية موجودة ضمن تركيب الحياة الإنسانية على مراد الله، وفي هذا يقول بن خلدون >>...فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم، وما أراد الله من اعمار العالم بهم واستخلافه إياهم، وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم<<⁽¹⁾، فالحاجة إلى الغذاء والحاجة إلى الدفاع وهما

(1) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط7، دار نهضة مصر، الجيزة، الجزء الأول، 2014، ص341

عنصرا استمرار الوجود الإنساني تدفع هذا الكائن المفكر إلى الاجتماع بالضرورة، هذه الضرورية ما هي إلا سننية الله في الكون، فلكي يأتي الفرخ بالضرورة تلقح البيضة ولكي يستمر الوجود الإنساني لابد من الاجتماع التعاوني التدافعي، هذا ما يطلق عليه سنة الله في الخلق >>... فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا 43 وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا 44<< (فاطر).

ويتحدد مفهوم العمران الخلدوني في مظاهر الاجتماع الإنساني، وحدده في ستة مظاهر رئيسية: السلطة وكل ما يدخل فيها من موضوعات كالحكم والخلافة والعصبية، البداوة (العمران البدوي) وكل ما يدخل فيها من موضوعات من قيم واقتصاد وطرائق عيش، الحضرية ويجوز قول الحضارة والمدنية وكل ما يدخل فيها من موضوعات كالعمارة والفنون والصناعة، الاقتصاد وكل ما يدخل فيه من موضوعات كالعمل وأنواع الوظائف ومتطلباتها، المعرفة وكل ما يدخل فيها من موضوعات كالتعليم وأنواع العلوم واللغة، الجغرافيا البشرية والذي أطلق عليه العمران البشري على الجملة والمقصود علاقة الإنسان بالمكان وتأثير ذلك على طبائع البشر وحضارتهم، ونشير إلى نقطة مهمة يغفل عنها الكثيرون هي في قوله >>... وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعقل الكوائن وأسبابها>> (1)، فهو يدرس مظاهر العمران الإنساني من خلال السنن التي تحكمه وهي سنن موجودة في الاجتماع الإنساني نفسه (العوارض الذاتية)، الكون يسير على مراد الله بسننه فيه، والاجتماع والتعاون الإنساني من سنن الله في خلقه، فالاجتماع سنة وكذلك التغير والتطور، ولذا كل مرحلة زمنية وحالة مكانية لها عوارضها التي تختلف عن فترة زمنية وحالة مكانية أخرى.

منهج بن خلدون في دراسة علم العمران:

وفيه وجهان الوجه الأول ما يجب تفاديه في البحث العلمي الموضوعي أي تجنب الأخطاء المنهجية الشائعة في وقته، والوجه الثاني الخطوات المنهجية الواجب الإلتزام بها:

الأخطاء المنهجية الشائعة:

- التشييع للأراء والمذاهب والأفكار، بالمعنى الحديث الوقوع في فخ الأدلجة، فالأيديولوجيا تعمي عن الحقيقة فهي عقيدة تبريرية غير محايدة، فنقبل ما يوافق تلك الأيديولوجيا من الأفكار دون تحقيق.
- الأحكام المسبقة والآراء الشائعة، إذا انطلق منها الباحث وقع في فخ الأخبار الزائفة التي لا تقوم على أية قاعدة علمية صحيحة.

- توهم الصدق الذي يقع فيه الكثير، وسببه الثقة في صدقية ناقل الأخبار والأجر
بالباحث أن يتبين ويتحقق، وسببه أيضا الجهل بتطبيق القواعد على الوقائع أي الجهل
بطبيعة العمران الإنساني.

- الذهول عن المقاصد، وقد قدمها بن خلدون بنفس المفهوم الفيبري <<...فكثير من
الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه
فيقع في الكذب>> (1)، يربط الفعل المشاهد أو القول المسموع بمقاصد الفاعل أو
القائل، فتحليل الفعل يرتبط بقصدية الفاعل وليس بذاتية الباحث.

- التحيز المقصود للحصول على مزيات دنيوية، فتوضع الفكرة في خدمة المصلحة
الشخصية

القواعد المنهجية المطلوبة: وهذا لا يعني أن تجنب الأخطاء المنهجية ليس بقاعدة
منهجية في حد ذاتها بل فصلنا بينهما فقط للتوضيح للطلبة.

- لابد من العلم بطبائع العمران، وهذا يعني معرفة مجموعة القواعد التي تحكم
الكون والطبيعة والإنسان، إذ هناك اتصال بين المخلوقات وبين الأكوان فأخر أفق
الدرجة السفلى مرتبط بأول أفق الدرجة العليا(2)، فبن خلدون هو أول من تكلم في
التطور وليس داروين كما يعتقد البعض، فسنن الوجود موجودة في قلب الكون ذاته
وكذلك الاجتماع الإنساني، وقاعدة اكتشافها حسب بن خلدون تكون بالملاحظة وربط
الأسباب بمسبباتها (العقل التجريبي)، مطابقة الخبر للواقع، المقارنة، واكتشاف
القواعد الموجودة في ذات الشيء فهي أصله ومعرفة أيضا قاعدة ما لا يمكن أن
يعرض أبدا للشيء وهي قاعدة خلدونية لم يتحدث عنها اللاحقون في علم الاجتماع،
فهي قاعدة قانونية عند بن خلدون بنفس أهمية القاعدة الأولى، أما الحالة العارضة فيه
لم يعرها بن خلدون الاهتمام <<... فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار
بالإمكان والإستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميز ما
يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يُعتد به وما لا يمكن
أن يعرض له، وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل>> (3).

- يذكر بن خلدون أنه لا توجد فقط أسباب ظاهرة توجد أيضا أسباب كامنة خفية،
وهي أسباب غير طبيعية فهي ليست متأصلة في الظاهرة ذاتها، والأسباب الخفية قد
تكون ناتجة عن خداع البشر وحيلهم أو أهوائهم ورغباتهم مما يصعب كشفه، أو هي
من تدبير الله لأمر يعلمه هو ويريده على مراده، والأسباب الخفية هي ما يطلق عليها
العامة الحظ والنصيب (4)، ونفهم من بن خلدون أن الأسباب الظاهرة تكون في بعض

(1) نفس المرجع، ص 329

(2) نفس المرجع، ص 412.410، وأيضا الجزأ الثالث، ص 923.922

(3) نفس المرجع، ص 332

(4) نفس المرجع، الجزأ الثاني، ص 687.685

الأحيان غير مفسرة للوقائع، كالمثال الذي يضربه في المقدمة عن حالة الحرب حيث قد يتغلب الأقل عدداً وعدة والقاعدة الطبيعية أن الغلبة تكون للأكثر عدة وعدداً، يتعلق الأمر في هذه الحالة بأسباب خفية قد تكون إلهية ونصر من الله يريد له عباده وهو أعلم بخفياهم، أو أسباب بشرية خفية كالخداع أو الشجاعة أو الإقدام وكلها أسباب معنوية مما يرجح كفة من لم نعتقد برجحان كفته لو اعتمدنا على الأسباب الظاهرية فقط.

- هناك قواعد أو أصول السياسة والملك، وقواعد وأصول ظهور الدول وتطورها وزوالها، وقواعد الحضارة والمدنية... وهكذا فأى خبر منقول يُعرض على القواعد والأصول فإن وافق الخبر القاعدة صح وإن خالفها كذب.

- استخدام المقارنة، الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب من حيث التشابه والاختلاف، مع تعليل تلك التشابهات والاختلافات، فذلك التعليل هو مصدر القواعد المستنتجة في مسألة تطور العمران البشري، فالتغير والتطور قاعدة كونية عند بن خلدون.

- الشك المنهجي من الأسس التي وضعها بن خلدون للمنهج العلمي قبل ديكارت بقرنين من الزمن، فحسب بن خلدون لا نقر بصدق الواقعة مباشرة لأبد من الشك فيها، وهنا يتعلق الأمر بمعرفتان، المعرفة الدينية بحكم تعلقها بعالم الغيب (الوحي) فهي لا تخضع للشك المنهجي إلا بالتعديل والتجريح في الرواة والناقلين فقط، فالقاعدة في المعرفة الدينية <<أوجب الشارع العمل بها متى حصل الظن بصدقها، وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط>> (1)، والقاعدة في عالم الشهادة وهي الوقائع الملاحظة فالشك فيها ضروري والتحقق منها واجب ويكون بإخضاعها للتحقيق وفق قواعد العمران.

■ مالك بن نبي (1905-1973):

مفكر جزائري ولد بقسنطينة، وعاش بتبسة حتى أنهى المرحلة الإعدادية، ثم العودة إلى قسنطينة لإتمام دراسته الثانوية، ثم السفر نحو فرنسا للعمل في تجربة فاشلة، فالعودة إلى الوطن والعمل ككاتب في إحدى محاكم مدينة أفلو، ثم الإستقالة سنة 1928، ثم العودة إلى فرنسا سنة 1930 ليكمل دراسته كمهندس في الاتصالات اللاسلكية إلى غاية تخرجه سنة 1935، سنة 1936 يعين مديراً ومحاضراً لنادي المؤتمر الجزائري بمرسيليا، ومن هنا يبدأ الشاب في مشروعه النهضوي الفكري خاصة بعد ترأسه لجمعية الوحدة الطلابية المغربية بباريس، وتبدأ السلطات الفرنسية في محاصرته ومنعه من السفر باستثناء تنقلاته بين فرنسا والجزائر، يستغل هذا الحصار للقراءة والكتابة حول مشكلات الحضارة المهموم بها وهو يشهد حال تخلف

وطنه والأوطان الإسلامية (1)، له عدة كتب أشهرها والتي سنعتمد عليها وجهة العالم الإسلامي، في مهب المعركة، مشكلة الثقافة، ميلاد مجتمع. **خصوصية الظاهرة الاجتماعية:**

كل ظاهرة أو مشكلة اجتماعية يجب أن تُطرح في إطار ثقافة ذلك المجتمع، فكل مجتمع خصوصياته، وهذا يعني أن الظواهر الاجتماعية ذات طبيعة مجتمعية تاريخية حضارية، فهي محدودة بالمكان والزمان والإيديولوجيا السائدة، فقد يوحد المكان ويفرق الزمان وهذا اختلاف الظواهر الاجتماعية عبر تاريخ المجتمع الواحد، فكل فترة تاريخية لها خصائصها الثقافية والفكرية وظروف تاريخية تشترطها، وقد يوحد الزمان ويفرق المكان وهذا اختلاف الظواهر الاجتماعية باختلاف المجتمعات في التاريخ الواحد، فكل مجتمع له خصوصيته الثقافية والحضارية وظروف جغرافية تشترطها، وقد يوحد الزمان والمكان وتفرق الإيديولوجيا وهذا اختلاف الظواهر الاجتماعية باختلاف الأفكار والعقائد السائدة داخل المجتمع الواحد أو القومية الواحدة وظروف تاريخية وجغرافية تشترطها، حاصل هذه المتغيرات يوحد دائما اختلاف الثقافة السائدة في المجتمعات والأزمنة المختلفة، هذا الذي جعل مالك بن نبي يولي أهمية كبيرة لمفهوم الثقافة ويطلق عليها "مشكلة الثقافة" لمحوريتها في مشروعه الذي هو مشروع مجتمع.

الفعالية الثقافية:

الثقافة عند بن نبي تتصل <<بفهم واقع اجتماعي معين موجود بالفعل في نطاق تاريخي معين، أو موجود في حيز القوة في نطاق فكري معين أيضا>> (2)، لكن بالنسبة لبن نبي فإن ذلك الواقع الاجتماعي العربي والإسلامي المعين لم يولد بعد، والمقصود بذلك أن المجتمعات العربية والإسلامية مرتبهة سواء في عالم الأشياء أو عالم الأفكار للغرب، هذا مادفعه إلى عقد عدة ندوات للحديث عن ميلاد مجتمع، فمشكل الثقافة معقد في عالمنا المتخلف.

يرى بن نبي أن عالم الأشياء وعالم الأفكار يتحركان معا متساندان ومتعاونان من وجهة النظر الديناميكية، لكن من وجهة النظر الستاتيكية فإن لعالم الأفكار الأسبقية على عالم الأشياء، لكن الأفكار مشروطة بوظيفيتها، ووظيفيتها ليست ذاتية موجودة داخل الفكرة بل هي موجودة داخل المتلقي فرد أو جماعة، فقد تكون الفكرة ذات فعالية ذاتية لكنها لن تكون وظيفية إلا إذا وجدت الفعالية في المتلقي، فأفكار ابن خلدون المبدعة وُلدت في مجتمع غير فعال ولم تجد الفعالية لدى المتلقين فلم يتأسس علم الاجتماع، وأفكار أوغست كونت أقل إبداعا بكثير من أفكار ابن خلدون وُلدت في

(1) مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن: القسم الأول الطفل، القسم الثاني الطالب، ط2، دار الفكر، سوريا، 1984

(2) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، ط2، دار الفكر، بيروت، 1971، ص50

مجتمع فعّال فتأسس علم الاجتماع، هذا يشبه ظاهرة الإستقلاب فالغذاء فعّال في ذاته لكنه لن يكون وظيفي في الجسم إلا إذا وجد شروط الفعالية داخل ذلك الجسم كالأنزيمات وغيرها، الفعالية تولد من العلاقة العضوية بين الأفراد والأفكار والأشياء، فتتشكل أهداف سامية تشدّ المجتمع إليها من وجهة نظر ذلك المجتمع (1).

إعادة بناء المجتمع:

يطرح بن نبي فكرة في غاية الأهمية والفعالية وهي ضرورة إعادة تشكيل وبناء المجتمعات التي كانت مستعمرة، ويصدق الأمر على أية صدمة عنيفة ومفاجئة تصيب بنيات المجتمع فتهدمها أو تخلخلها، كحرب أهلية، أو أزمات اقتصادية حادة، أو ظهور فكرة ثورية، أو عملية تحديث عنيفة تجتث البنيات التقليدية دون تدرج، أو ما يشبه ذلك، لماذا هي مهمة جدا:

- الإستعمار عملية تدمير لبنيات المجتمع على اختلافها، أو كما يقول عالم الاجتماع الجزائري عبد المالك صياد هو عملية اجنثا لتلك اللبنيات.

- الإستعمار صدمة ثقافية حضارية للمجتمعات المختلفة الثقافة والحضارة، خاصة وأن الدول المستعمرة أكثر تطورا في جميع النواحي من الدول المستعمرة، ذلك الإحتكاك يكشف عن مفارقات تصنع اختلالات مفاجئة وصادمة.

- التغيّر المفاجئ صادم يصنع تخلخل اجتماعي ومفارقات ويحتاج إلى إعادة بناء تدريجي يتوافق والتغيرات الحاصلة.

أسس إعادة بناء المجتمع عند بن نبي ثلاث (2)، هي:

1- الإنسان يحدده عاملان، العامل البيولوجي الذي يظهر من خلال الإستعدادات الفطرية التي يملكها والناس فيها مختلفة، والعامل الاجتماعي والناس فيه مشتركة المتمثل في بنيات المجتمع التي تسعى مجتمعة إلى تحقيق وحدة الهدف المجتمعي، وحدة الهدف تقوم على مبدأ أخلاقي (أسلوب الحياة)، مبدأ جمالي (إنسجام أسلوب الحياة مع الأذواق والحساسيات العامة)، مبدأ عملي (أسلوب إنفاق الوقت والمال والجهد بما يتفق مع أهداف المجتمع)، بهذه المبادئ يتم توجيه الإنسان نحو الفعالية في الفكر والعمل والمال.

2- التراب متعلق بالعنصر الأول بقدر فعالية الإنسان يتم تعمير التراب واستغلاله لصناعة الحضارة والإبقى معطلا، فاليابان أرخبيل بركاني فحظها من التراب سيء جدا غير أنها مجتمع فاعل فهي من بين الدول المنافسة في التطور، والدول العربية

(1) نفس المرجع، العودة إلى الكتاب كله

(2) مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دط، دار الفكر، سوريا، دت (العودة إلى الكتاب كله)

أكثر حظا من حيث التراب إذ تنام على حقول من الذهب الأسود ومع ذلك هي أكثر البلدان تخلفا وتبعية.

3- الوقت أيضا متعلق بفعالية العنصر الأول، حظ الأمم جميعا متساوي من حيث الوقت، غير أن الاختلاف يكمن في إدراك معنى الزمن، فالزمن عند الغرب يقاس بالثواني لأنه مال وإنتاج، أما المجتمعات الإسلامية فإن مفهوم الزمن داخل مدركاتها واسع، وهذا يذكرني بمواعيدنا ومواعيد الغرب، فالعربي يعطيك الموعد بالتوقيت المحدد، والعربي يعطيك الموعد بالتوقيت الواسع (نلتقي بعد الظهر، أوليلا وهظذا فهو مفتوح على الواسع). إذن مبادئ بناء مجتمع هي الإنسان الفاعل+التراب+الوقت.

■ عبد الوهاب المسيري (1938-2008):

عالم اجتماع مصري من مدينة دمنهور، خريج قسم اللغة الإنجليزية كلية الآداب جامعة الإسكندرية التي يعين فيها كأستاذ معيد سنة 1959، سنة 1963 سافر نحو أمريكا لاستكمال دراسته العليا حيث تخصص في الأدب الإنجليزي المقارن، شغل مناصب فكرية وسياسية عديدة، ويبدو أنه عاش فترة مهمة من حياته في البحث عن معالم طريقه، فقد إنظم بدايات حياته لحزب الإخوان، ثم للحزب الشيوعي، ثم عاد ليؤسس مع آخرين حزب الوسط الإسلامي، وفي نهاية حياته أصبح المنسق العام لحركة كفاية (الحركة المصرية من أجل التغيير) ولعله لهذا يقول في كتابه الممتع رحلتي الفكرية <<إنّ الايمان لم يولد داخلي إلا من خلال رحلة طويلة وعميقة>>، له مؤلفات كثيرة أشهرها ما كتبه عن اليهود والصهيونية، لكن في العلوم الاجتماعية والإنسانية أشهرها إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، قضية المرأة بين التحرر والتمركز حول الأنثى، العالم من منظور غربي، دفاعا عن الإنسان: دراسات نظرية وتطبيقية، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، الحداثة وما بعد الحداثة...، هناك أفكار كثيرة لهذا المفكر الممتع يعالجها لذا نذكرها باختصار.

الإنسان الطبيعي والإنسان الرباني (1):

مفهوم الإنسان الطبيعي مفهوم مادي، من هذا المنظور هو ظاهرة طبيعية تدرس كغيرها من الأشياء الأخرى من خلال نماذج العلوم الطبيعية ومنهجيتها، فهو مرفولوجيا وفزيولوجيا يخضع لقوانين الحتمية، فهو متعضية بشرية تسري عليه جميع قوانين بقية المتعضيات الحيوانية، ومتعضية اجتماعية تسري عليه قوانين

(1) عبد الوهاب المسيري، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، ط1، دار الشروق، القاهرة، 2002، ص221.224

يمكن أيضا العودة أيضا إلى الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ط2، دار الفكر، سوريا، 2007، الفصل الثاني إشكالية الطبيعي والإنساني، ص79.41

المجتمع القهري كما يقول دوركايم، ومتعضية نفسية يسري عليه قانون المثير إستجابة كما تقول السلوكية، وهذا الذي أطلق عليه هربرت ماركيز الإنسان ذو البعد الواحد، لا يملك إرادة ولا حرية ولا اختيار.

الإنسان الإنسان كما يسميه المسيري والذي يحلو للباحثة تسميته الإنسان الآدمي، ويطلق عليه المسيري أيضا الإنسان الرباني هو مفهوم إنساني، هو جزء من الطبيعة لكنه كائن "تجاوزي" قادر على تجاوز جانبه المادي المحاصر بالقوانين الحتمية ليصنع تاريخه الخاص، ويصنع منظومة القيم والمعايير والأخلاق الروحية والمعاني التجريدية التي تصنع خصوصيته الإنسانية ككائن رباني، مسؤول وكلف ومختار وخليفة.

المقاربة الأولى إلحادية وعدمية إما تنفي وجود الله كذات صانعة مبدعة للخلق ومتعالية عليه، لتصنع آله أخرى بمسميات مختلف كالعقل، الطبيعة، العلم... أو عدمية لا تؤمن بوجود إله ولا إنسان وإنما متعضية بشرية تتكون من مجموعة حاجيات ومتطلبات وغرائز، إنه نموذج الكائن المادي ذو البعد الواحد، فهي نظرة واحدية تنفي الواحد الخالق الذي إليه المأل، المقاربة الثانية روحية دينية تؤمن بالواحد الكامل صانع الوجود ومصدره وغايته يصرف الأمر كيف يشاء، هو الذي يمنح للوجود الإنساني المعنى والمرجعية، يوجد خالق ومخلوق، الإنسان والطبيعة، الروح والمادة... ثنائيات تنطلق من الواحد لتنتفي الواحدية وتقر له بالوحدانية.

العلاقات الاجتماعية التعاقدية والعلاقات الاجتماعية التراحمية (1):

المجتمعات التقليدية تتصف بالعلاقات القائمة على التراحم وهو ليس نفسه مفهوم التعاون والتضامن الآلي الدوركايمي كما قد يعتقد البعض، فالتضامن الآلي الدوركايمي لا يحمل البعد القيمي فهو موجود في عمق البنية التقليدية للمجتمعات التي لم تعرف بعد التخصص في العمل، فهو آلي عفوي ميكانيكي، في حين التراحم موجود في عمق المنظومة القيمية الإسلامية، فهو لدى المسلم ليس عفوي بالمفهوم الدوركايمي بل هو عفوي بمفهوم تجذره داخل قيم الإسلام، يأتيه الفرد وهو مدرك تماما بأنه يتقرب به إلى الله زلفى، ويدخر به لأخرته، وواجب من واجباته كمسلم.

العلاقات التعاقدية هي تلك العلاقات التي تقوم على تبادل المصالح والخدمات والتي يسميها دوركايم التضامن العضوي الناتج عن ظاهرة تقسيم العمل، النظرية النسوية الغربية تطرح مفهوم علاقات الرعاية، أو قيم الرعاية القائمة على مبدأ أن كل إنسان في فترة من حياته يحتاج إلى الرعاية وعليه أن يرعى هو أيضا غيره فالتعاقد قائم في الرعاية لوجود شرط التبادل، المسيري يعزي العلاقات التعاقدية للمجتمعات الحديثة، ودوركايم يعزها لتقسيم العمل، وكأن التعاقدية تلغي التراحمية،

(1) عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر "سيرة غير ذاتية غير موضوعية"، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2000، ص60.48

غر أننا نختلف معهما الإثنين ، في المجتمع المسلم ظهرت أول دولة مدنية تعاقدية في الإسلام في المدينة المنورة، حيث بدأ مفهوم العقود يصنع بنية المجتمع المسلم من العلاقات الحميمة كالزواج إلى العلاقات بين الدول، وحتى لا نقع في محاجة قد لا يستوعبها الطالب نقول أن الثنائية المسيرية (نحت الباحث لإسم المسيري) السالفة الذكر في العنصر السابق تصلح لتفسر تساكن العلاقات التعاقدية والعلاقات التراحمية في المجتمع المسلم كون أن القيم التراحمية متجذرة في بنية تلك المنظومة القيمية، وكذلك العلاقات التعاقدية، وكلاهما ضروريان في المجتمع المسلم، الأولى تحفظ الحقوق بقوة القانون والثانية تحفظ العلاقات بقيمة التراحم.

النماذج المعرفية وإشكالية التحيز:

المسيري أراد أن يحل معضلة إسترداد نماذج ونظريات غربية لعلاج مشكلات مجتمعات عربية وإسلامية، فبدأ ومجموعة من المفكرين العرب في البحث عن بدائل منهجية تتوافق مع واقع المجتمعات العربية والإسلامية، فالمناهج والنماذج المعرفية والمفاهيم ليست محايدة إنها منحازة كثيرا، لقد مالت واقعا وفعلا كل الميل بوعي أو بدونه، فما الحياد القيمي الذي تحدث عنه فيبر أو الإنعكاسية التي تحدث عنها بورديو (ممارسة تفكير انعكاسي على الذات بحيث يراقب الباحث إنتاجه الفكري ويكتشف مدى سقوطها في فخ تأثيرات التاريخ الشخصي) إلا محاولات لمراقبة ذات الباحث أثناء البحث، لكن التحيز يقفز على الوعي إلى اللاوعي فهو <<وجود مجموعة من القيم الكامنة المستترة في النماذج المعرفية والوسائل المنهجية البحثية التي توجه الباحث دون أن يشعر بها، وإن شعر بها وجدها لصيقة بالمنهج لدرجة يصعب معه التخلص منها>> (1).

تلك القيم يقول المسيري تأخذ شكل نماذج معرفية كامنة فالحدث Modernité ذلك المفهوم المشتق من كلمة Modo والتي تعني الآن وتوا يُفترض فيها أن تكون محايدة تعبر عن الأنبية، لكننا نجدها صارت مفهوما منحازا يعبر عن التقابل مع التقليدي والقديم والعتيق فأشبعنا بالبعد القيمي، فيصبح القديم سلب وتخلف والجديد إيجاب وتقدم، فالمعرفة تتشكل من مثل هذه النماذج المتحيزة غير الواعية، والباحث يجد نفسه لا شعوريا يختار بين النماذج الموجودة والمتاحة ويهمل ما يقع خارجها، وهذا ما يحدث في المجتمعات العربية والإسلامية التي يجد باحثوها أنفسهم يختارون من النماذج الغربية، فيصبحون سجنائها بدل أن يطوروا آليات تنبعث من واقع تلك المجتمعات، فتحدث عمليات تلفيق وترقيع تعسفية وأحيانا تتحول إلى محاكمات لواقع مخالف لتلك النماذج، فالبحث عن منهج جديد ضروري ليكشف عن آليات التحيز، ويقترح المسيري إحدى الآليات والتي يسميها كشف الباحث عن تحيزاته، حيث يقوم

(1) عبد الوهاب المسيري، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهد، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1996، الجزء الأول، ص5

الباحث بالكشف عن تحيزاته المنهجية والمعرفية ويفصح عنها لغيره من الباحثين حتى يتجاوزونها.

الموضوعية المتلقية أو البغائية والموضوعية الإجهادية:

الموضوعية المتلقية عند المسيري ترتبط بالنموذج المعرفي الغربي المادي المهيمن، حيث تدرس الظواهر الاجتماعية والإنسانية كأشياء خارج الذات العارفة باسم الموضوعية والحياد القيمي، وهذا يعني كما يقول المسيري <<أن الواقع نفسه واقع بسيط، وثمة قانون مجرد عام يسري على الظواهر الطبيعية وعلى الظواهر الإنسانية وعلى جسد الإنسان وعقله، والحقائق، كل الحقائق، عقلية وحسية وقابلة للرصد الموضوعي في كل جوانبها وابعادها>> (1)، من هذا المنطلق فإننا ننظر جميع البشر العقلاء إلى الظاهرة س بنفس النظرة في كل مجتمع مهما اختلفت الثقافة والحضارة، والأطروحة التحليلية في الموضوعية المتلقية هي <<البساطة-الوضوح-الدقة-التجرد-الإنفصال عن القيمة>> (2)، في حين الظاهرة الإنسانية جد معقدة ومركبة ولا يمكن تفتيتها إلى ذرات مادية أولية، غير أن الموضوعية المتلقية تحب التفاصيل ومراكمتها والنقل الفوتوغرافي للواقع تمرر التحيزات وكأنها نماذج محايدة، والمسيري يلفت الانتباه لهذا الأمر في موسوعته عن اليهود إذ يرفض في تعريف المفاهيم النقل الحرفي عن النموذج الغربي حتى لا تترسخ تلك التحيزات في العقل العربي والإسلامي، فمثلا لا يستخدم مفهوم التاريخ اليهودي وإنما تاريخ الجماعات اليهودية ويظهر أن اليهود لا تاريخ لهم كوحدة فهم جماعات مختلفة.

الموضوعية الإجهادية لا تبحث عن قوانين عامة وصارمة ولا عن الحياد المطلق، كما لاتعني الذاتية المشخصة، وي طرح المسيري بديل وسط بين التطرفين وهو الإجهاد في تفسير الظواهر إنطلاقا من النموذج الإسلامي الذي يعتقد بالغيب، وأن الحياة كلها بكل ظواهرها بين يدي الرحمن إنشاء يقابها كيف يشاء متى يشاء، المجهول موجود وسيظل، لذا يقترح المسيري <<بدلا من "موضوعي" و"ذاتي" سنستخدم مصطلحات مثل: "أكثر تفسيرية" و "أقل تفسيرية">> (3)، فالعلم البشري ليس مطلق.

(1) عبد الوهاب المسيري، دفاع عن الإنسان دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة، ط2، دار الشروق، القاهرة، 2006، ص277

(2) نفس المرجع، نفس الصفحة

(3) عبد الوهاب المسيري، العالم من منظور غربي، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، العدد 602، فبراير 2001، ص290

المدرسة الإسلامية المحور الثاني: التصور المنهجي العنصر الأول: القواعد المنهجية والنموذج التصوري

I/ القواعد المنهجية الاسترشادية للمدرسة الإسلامية:

إذا عرضنا بعض القواعد المنهجية في نقاط فإننا نعرض العام منها الأكثر تداولية في منهج المدرسة منذ الإنطلاقة الأخيرة السابقة الذكر في النشأة والتطور، والتي يبدو أنها واعدة جدا وتستحق أن تُدرس وتدرّس.

نذكر مجموعة من القواعد كالتالي:

- صياغة المشكلة البحثية.

- صياغة مجموعة من الفروض كنموذج تصوري ينطلق من النماذج الإدراكية المتشكّلة ضمن المجتمع المسلم وليس تلك المتشكّلة ضمن المجتمع الغربي.

- ملاحظة الظاهرة موضوع الدراسة ملاحظة دقيقة.

- عدم الإكتفاء بالملاحظة الخارجية وإنما البحث عن الدوافع الداخلية للسلوك، أي البحث عن الدلالة التي يراها الفرد فيما يقع له وما يحيط به، ويمكن الإحاطة بتلك الدلالات ليس بالملاحظة الخارجية على أهميتها في توصيف الظاهرة، لكن لا بد من تجاوزها إلى الدلالات بالإستعانة بالمقابلة، أو الإستبيان، أو دراسة حالة، أو تحليل الخطاب، أو أية تقنية تكشف عن دلالات الفاعل للفعل.

- تحديد المفاهيم يكون من منطلق حضارة الأمة الإسلامية وليس من منطلق الحضارة الغربية، فالمفاهيم ليست محايدة إنها تتحدد كما يقول المسيري بالنماذج الإدراكية أو الخريطة المعرفية التي هي نتاج مزيج معقد من ثقافة المجتمع في حركيته وتغيره وفعل الإنسان في تلك الثقافة، في بحوثنا لا نجد سوى المفاهيم الغربية المنتجة في حضن تلك الحضارة، وقد تناولها علي الوردي هو الآخر في تحليله لتحيز النماذج الإدراكية الغربية في تحليلها للمجتمعات العربية.

- المنهجية الإسلامية منفتحة على كل مناهج المعرفة فهي تنطلق من تصور اتصال الوجود ببعضه البعض وتكامله، فكل المناهج تصلح لاستكشاف الكون من استقراء وما ينجر عنه من تجربة ومقارنات وتفكيك وكذلك الاستنباط، وما ينجر عنهما من نماذج تصورية وتحليلية ومنطقية... ويضبط المفكر محمد أبو القاسم حاج محمد الإستقراء والإستنباط بشرط تجريد الإستدلال من التطرف نحو اللاهوت فلا يصبح مجرد ميتافيزيقا لاهوتية ومنطق عقيم، وتجريد الإستقراء من التطرف نحو المادية فلا يصبح مجرد حتميات صماء (1).

(1) محمد أبو القاسم حاج حمد، ابستمولوجيا المعرفة الكونية الإسلامية المعرفة والمنهج، ط1، مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد-دار الهدى، بغداد-بيروت، 2004، ص379

- رصد العوامل المكونة للظاهرة في تفاعلها، أي الكشف عن العلاقات التي تشكل الظاهرة دون إسقاط الذات والمعتقدات على الظاهرة.
- تستخدم المدرسة الإسلامية مفهوم المنهجية ليس كخطوات بحث التي نعرفها جميعا من ملاحظة وفرضيات فذلك أمر تقره ولا ترفضه... فتلكم تعتبر طريقة بحث في الظاهرة لكن يجب أن تفرغ ضمن مدخل منهجي كروية كلية شمولية إنطلاقا من وحدة الأكوان واتصالها بعضها ببعض، وهي رؤية موجودة عند جميع رواد المدرسة بل عند أغلب من كتب في أسلمة المعرف، يقول فيها حاج محمد >>... دلالة الإصطلاح ترتبط بالوحدة العضوية للوجود الكوني وحركته <<⁽¹⁾، فهي منهجية تنظر للأجزاء في إطار الكل الذي خلقه الله على مراده، وبحكم صعوبة رؤية الكل أنيا(الآن وهنا)، وتاريخيا في ترابطه ماض وحاضر ومستقبل جعل الله الوحي دليل إرشاد وتوجيه رابطا بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

II / النموذج التصوري للمدرسة الإسلامية:

النموذج التصوري كما رأينا مع بقية المدارس الأخرى هو جملة التصورات التي تحملها المدرسة تجاه الكون والعالم والأشياء، والذي من خلاله تتحدد معالم أفكار المدرسة وتنظيراتها ومناهجها، فما هي إذن جملة التصورات التي تنطلق منها المدرسة الإسلامية:

أ/ فيما يتعلق بالإنسان: نركز على ثلاث أسس هامة تصنع الفارق بين تصور المسلمين وبين غيرهم في نظرتهم للإنسان.

- **مبدأ الفطرة:** الإنسان يتكون من مادة وروح، المادة ترابية أما الروح فهي سر الله صير بها البشر إنسانا عاقلا مفكرا مدركا للوجود قادرا على المعرفة والتعلم والإبداع >> **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** << (الإسراء 85)، القدرة على المعرفة والتعلم مرتبطة بمبدأ الفطرة أيضا فالإنسان في التصور الإسلامي يولد على الفطرة >> **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** << (الروم 30)، فالنفس كما يقول مصطفى حلمي >> **خُلِقْتَ تَعْرِفُ رَبَّهَا** <<⁽²⁾ فهي نزاعة نحو خالقها، ولذا في تصورنا أن الظاهرة الدينية متجدرة في الإنسان بالرغم من الإنحرافات التي يقع فيها، فقد أثبتت الحفريات البشرية على اختلافها مدى أصالة الظاهرة الدينية في حياة البشرية، غير أن الغرب وعلى رأسهم الوضعانيين كأغوست كونت ودوركايم يعتبرون الدين صناعة بشرية تقتضيها

(1) محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، ط1، مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد-دار الهدى، بغداد-بيروت، 2003، ص236

(2) مصطفى حلمي، مناهج البحث في العلوم الإنسانية بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2005، ص102

الحاجة الاجتماعية، فالدين في نظرهم ذا طبيعة توليدية يولد القيم والمعايير والأخلاق التي يحتاجها البشر لانتظام حياتهم فأوجدوه لحاجتهم إليها كما أوجدوا أنظمة أخرى يحتاجونها لاستمرار وجودهم الاجتماعي، وأي نظام يمكن تجاوزه بنظام آخر لن تعود البشرية بحاجة إليه ولذا عند الماركسيين والعلمويين الدين أفيون الشعوب ما عادوا بحاجة إليه.

التصور الإسلامي يخالفهم تماما فالدين موجود ضمن تكوين الإنسان يولد معه متجدر في كينونته ثم بعوامل خارجية ينحرف عنه ويحرّفه، والمعرفة إمّا أن تبقى مرتبطة بتلك الفطرة فيكون تصورهما للكون تصورا روحيا غير منقطع عن شقه المادي، أو معرفة منقطعة عن الفطرة فيكون تصورهما تصور مادي منقطعة عن شقها الروحي، ومن هنا فإن الفطرة سليمة في أصلها تقود الإنسان نحو معرفة خالقها مالم تغشاها الأوهام والخرافات والكبر، ويبقى الدين صلة المخلوق بخالقه يصنع تناغم وجوده مع الكون كله ويربطه بعالم الغيب الذي ينكره الغرب.

- **مبدأ الخلافة في الأرض:** حياة الإنسان غائية، فغايتها الخلافة في الأرض على مراد الله >> **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ << (البقرة 30) ، وخلافته هي إعمار الأرض وإدارة ما سخره الله له (1) بالروح التي نفخها فيه فأصبح قادرا على الإدراك والتمييز بين الخير والشر وبحرية الإرادة والاختيار، يختار أن يعمر الأرض بالعمل الصالح فيتناغم مع فطرته أو أن يفسد في الأرض فينحرف عن تلك الفطرة، فالخلافة >> **مسؤولية مناطها في الجوهر حرية الإرادة والقرار، وقدرة الإدراك وطاقة العلم** << (2).

في الفكر الغربي الحياة معركة وحرب ضد الطبيعة وإخضاع لها بما يحقق نهمه المادي المتزايد، يصور أنور عبد المالك وهو عالم اجتماع عاش في أمريكا ويعرف الغرب جيدا تلك الحضارة بأنها حضارة طاغية، عملت على تصوير الإنسان أنه سيد ومالك الكون من حقه أن يفعل ما يشاء دون رقيب، كل الإنجازات التي حققتها ثمنها باهظ من حروب واستغلال واستعباد، مجرد تنمية اقتصادية بدل تنمية الإنسان (3).

- **مبدأ التسخير:** مبدأ التسخير الإسلامي مقابل مبدأ القهر الغربي، فالله سخر الطبيعة والكون للإنسان فهي مطواعة له بمشيئة الله لا منقادة له بقوة القهر، والفرق شاسع بينهما فالقهر يظهر استعلاء الإنسان والتسخير يظهر كما يقول حاج حمد مد

(1) عبد الحميد أحمد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي-دار القارئ العربي، أمريكا-مصر، 1991، ص129

(2) نفس المرجع، ص129

(3) أنور عبد المالك، الجدلية الاجتماعية، تر: سامية الجندي وعبد العظيم حماد، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 916، 2005، ص601.602

الله للفعل الإنساني فيولد تطورات أكثر من قدرات الإنسان الذاتية (1)، فالإنسان لا يملك قوة الإنبات ولا قوة الحياة ولا يصنع شيئاً إلا مما هو مخلوق مسخر له، الاعتقاد بالتسخير يربط الإنسان دائماً بخالق عظيم بيده ملكوت كل شيء، والاعتقاد بالقهر يؤدي إلى طغيان الإنسان والعلم، ويؤدي أيضاً كما يقول حاج حمد إلى موضعة الظواهر <<يجرد الكون من صفات الخلق الإلهي وأبعاده ويختصره إلى حدود ما يعطيه الموضع، وماذا يعطي الموضع؟. يعطي المعلومة العلمية التي تبدو للإنسان مستقلة في حدودها الظاهرية عن البناء الكوني المشياً برحمة التسخير>> (2)، كما أن الاعتقاد بالتسخير يحيل الأشياء كلها والقوانين التي تحكم الطبيعة والإنسان إلى مبدأ أول هو الله، فتصبح الظواهر كما يقول الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن آيات وليست عمليات صماء، فالليل والنهار آية وفي أنفسنا آيات، والآيات لها غايات وليست ظواهر نشاهدها بالعين المجردة فقط، <<وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ>> (الجاثية 13).

ب/ في الكون: وحدانية الخالق واتصال كل شيء ببعضه ببعض أهم أساس يقوم عليه تصور الوجود لدى المسلمين.

قبل قرون طويلة على نشأة الفلسفة الوضعية قال بن خلدون باتصال الأكوان بعضها ببعض واتصال الأشياء مردها إلى الواحد، والنظر إلى الظواهر يجب أن يكون ضمن هذه الرؤية الشمولية وليس ضمن النظرة التجزيئية التي تجعل الجزء يستطيع الحكم على الكل، وأصبحت هذه التجزيئية فلسفة ومنهج بحث علمي، المدرسة الإسلامية لا ترفض هذه التجزئة أو الموضعة للظواهر والقوانين لكنها ترفض التعميم المطلق وسحب الجزء على الكل فهي تنظر إليها <<باعتبارها صيغة من صيغ التركيب الكوني وليس الصيغة المطلق>> (3) كما فعلت الوضعية، فالذي يحدث أن الفلسفات الغربية تفسر الوجود انطلاقاً من النظريات وكأنها نظرية كل شيء، وهي في الأصل نظريات تنطلق من تفسيرات جزئية للظواهر الإنسانية والكونية، مع العلم أن المدرسة الإسلامية تقرّ بصعوبة التفسير الشمولي لاتصال كل شيء ببعضه البعض ضمن غاية إلهية من خلق الكون وقصور العقل البشري عن إدراك الكلية بمفرده، ولذا تطرح مبدأ القراءتين: قراءة الظواهر الملاحظة وقراءة الوحي ليس بالطريقة الشائعة كما يقول حاج حمد التي تسحب المنجزات العلمية على القرآن وتبحث الإعجاز فيه كتصديق له، وإنما هي قراءة تستوعب أن الكون مطلق

(1) محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية، ط1، دار الهادي، بيروت، 2004، ص243

(2) نفس المرجع، ص250

(3) نفس المرجع، ص252

يستوعب الوجود كله على الرغم من أنه يمدنا بظواهر جزئية، والقرآن مطلق سيظل مستوعبا للأمكنة والأزمنة المتغيرة رغم التأويلات المختلفة.

ج/ في الظواهر الاجتماعية: مبدأ السننية من أهم التصورات التي بإمكانها أن تعطي رؤية أكثر إبداعاً وصدقاً لمفهوم السببية الغائية بالمنظور الإسلامي، وليس السببية الحتمية العدمية كما هو واقع الفكر الغربي المادي.

المدرسة الإسلامية تنظر إلى الظواهر الإنسانية والاجتماعية من منطلق مبدأ السننية >> **اسْتَبْرَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا**<< (فاطر 43)، والسننية تعني السببية فكل سبب مسبب لكنها سببية غائية تنظر إلى الغايات في سنن الله، فالآية تتحدث عن قانون إلهي: البغي يؤدي إلى عقوبة أصحابه ولو بعد حين، وقد صاغ ابن خلدون قانونه الظلم أذان بخراب العمران من مثل هذه الآيات >> **وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**<< (الكهف 59)، وهي سنن مستمرة عبر تاريخ البشرية يحذرنا القرآن من عواقب مخالفة بعضها أو المرور صما وعميانا على بعضها الآخر دون إتيانها فيضيع الخير الكثير >> **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)**<< (الطلاق)، فكل سنة تحقق غاية في صيرورة الكون كله.

والسنة هي مراد الله في كونه كله بما فيه البشر، ويعرفها عبد الكريم زيدان بأنها >> **القانون العام الذي يحكم أفعال البشر وسلوكهم فإنها تتسم بالثبات والإطراد والعموم**<< (1)، فهي علاقات سببية يدعونا الله إلى تدبرها لنتنبأ بالمآل >> **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**<< (الأنفال 53) فالقاعدة هنا أنه لا يتغير وضع أي فرد أو جماعة أو مجتمع ما لم يغيروا هم ما بأنفسهم، وهي تتسحب على حال الحسنى والسوء على السواء، فتغير الحال من الحسنى نحو السوء أو من السوء نحو الحسنى مشروط بتغيير الإنسان ما بنفسه، وهناك سبببات تفسر الوقائع النازمة للصيرورة الإنسانية >> **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**<< (البقرة 251) وهي قاعدة التدافع أو الصراع كمفسر لصيرورة التاريخ البشري... >> **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**<< (النساء 26)، غير أنها سنن مفتوحة على إرادة الإنسان واختياره ليست سببية حتمية عبثية كما في الفكر الغربي المادي، إنما هي سببية غائية تربط السلوك الفردي

(1) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، ص14

والجماعي بالمآلات أو الغايات المشروطة بحرية الإنسان فهو يختار كيف يأتي عمله، فالأسباب والمسببات موجودة في الكون خلقها الله لا يفعل الحدث أو النتائج إلا وفق شروط تتعلق بفعل الإنسان فيها (1) وهنا تظهر حرية الإنسان إما أن يفعلها خيرا أو شرا >> وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)<< (الشمس)

من تلك السننية الإلهية نكتشف الكثير من العلاقات والأنظمة الاجتماعية التي تشكل بنية المجتمع المسلم، نظام الزواج، نظام الطلاق، النظام الاقتصادي، العلاقات الأسرية، النظام القانوني، العلاقات الاجتماعية، العلاقات الدولية، والعلاقة بين الخالق والمخلوق العبودية والعبادية... دون أن ننسى أن التغيير والتطور سنة من سنن الله فالعلاقات السببية الغائية دينامية وليست سكونية تحكمها سنة التغيير والتطور كقاعدة كونية هامة.

المدرسة الإسلامية

المحور الثاني: التصور المنهجي

العنصر الثاني: مراحل التحليل ونسق التفسير

I/ مراحل التحليل للمدرسة الإسلامية:

يمكننا أن نجمل مراحل التحليل لدى المدرسة الإسلامية في النقاط التالية:

- يقوم منهج المدرسة الإسلامية كما سبق وأن ذكرنا على مبدأ السننية أي معرفة سنن الله في الكون والطبيعة والإنسان والمجتمع، فهو منهج تفسيري يجمع بين ملاحظة الوقائع وتحليلها في ظل سنن الله في الخلق التي بينها الله في القرآن الكريم، فهي ليست تفسيرية صماء كما يسميها عبد الوهاب المسيري >>التلقي الموضوعي المادي للمعلومات يؤدي إلى تراكم المعلومات الصماء التي لا تقول شيئاً والتي تخفي كثيراً من الرؤى والتضمينات الفلسفية والمعرفية المتحيزة، كما أن المعرفة الذاتية لا تفيد كثيراً في عملية معرفة العالم الخارجي >> (1)، فهو إذن لا منهج تفسيري أصم ولا ذاتي متحيز، فالوقائع في التصور الإسلامي خلقها الله خارج الوعي الإنساني غير أنها لا تُدرك مباشرة وإنما بالإدراك (2) الذي تشكّل من نفخة الروح، فتعلم آدم إدراك الدلالات والمدلولات وتوليد الإشتاقات لفهم الواقع.

- تنوع النماذج التحليلية بحيث يمكنها أن ترصد الشيء ونقيضه، وليس الاكتفاء بتحليل اختزالي للظاهرة وطرح تفسير أحادي يختزل تعقيدات الحياة الإنسانية في إجابات محددة وقطعية (3)، فمثلاً لا نكتفي بتفسير ظاهرة مجتمعية هي إنتاج مجتمع وتاريخ بشري في أسباب اقتصادية فقط، أو دينية فقط، أو بيولوجية فقط، أو اجتماعية فقط كما فعل دوركايم الذي قال لا تفسير للاجتماعي إلا بالاجتماعي، وكما فعل فرويد فلم يفسر النفسي إلا بالجنسي، وكما فعلت السلوكية فلم تفسر السلوك إلا بالمشورات... فالمقدرة التفسيرية تزداد كلما زادت النماذج التحليلية وترتفع بذلك المقدرة التنبؤية وسيناريوهات حل المشكلة، ويسميها المسيري الموضوعية الاجتهادية.

- على الباحثين المسلمين ألا ينطلقوا في تحليل الظواهر من مفاهيم غربية محددة ونماذج إدراكية غربية جاهزة، وثنائيات صلبة (4) فعل/بناء، فرد/مجتمع، موضوعية/ذاتية، تفسير/تأويل، مع/ضد... عليهم أن يمارسوا قطيعة ابستمولوجية مع هذه التصورات الجاهزة وينظروا إلى العالم بتصوراتهم هم ونماذجهم الإدراكية الخاصة بهم، فالعالم متنوع وكبير ومختلف.

(1) عبد الوهاب المسيري، دفاع عن الإنسان، مرجع سابق، ص 288

(2) نفس المرجع، ص 300

(3) نفس المرجع، ص 290

(4) نفس المرجع، نفس الصفحة

- كأمة مسلمة لها كتاب موحى من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه سيكون أول أساس مرجعي نظري للبحث في أية واقعة أو ظاهرة لها سندها في كتاب الله، سواء تعلق بسننه لاستكشاف القوانين الكونية بما فيها الإنسانية، أو للمقارنات التاريخية مع القصص المروي في القرآن لاستكشاف أصول حركة المجتمعات وتغيرها، واستكشاف حالات الفطرة الإنسانية⁽¹⁾، هذا لا يعني إهمال عالم الوقائع الكونية بما فيها الإنسان كجزأ من الكون، وهي علوم وضعية تخضع للبحث والملاحظة والتجربة في ظل نموذج من التصورات الإسلامية وليس النموذج الغربي المادي.

- يطرح حاج محمد فكرة جديدة يسميها تكامل منهجية الخلق ومنهجية التشيؤ، منهجية التشيؤ تتعلق بعالم الشهادة والذي يُطلق عليه العالم الطبيعي وتحكمه قوانين المادة، أي قانون الأشياء ومنه نحت كلمته منهجية التشيؤ ليس بالمعنى الماركسي كما قد يعتقد البعض، عالم الأشياء لا تكتمل تفسيراته إلا بربطها بعالم الغيب الذي يطلق عليه حاج محمد عالم الخلق وهو يعكس قدرة الله في الوجود، ولأن الغرب معرفته مادية بقيت محصورة في عالم التشيؤ وهي معرفة جزئية قال بنسبية المعرفة والقوانين الكونية، لحل هذه المعضلة يطرح حاج محمد مفهوم القانون السببي الوظيفي من خلال منهجية الخلق القادرة على احتواء منهجية التشيؤ والمضي بها نحو التكامل، فالبحث العلمي الإنساني يتوصل إلى قوانين التشيؤ، والتفسير يجب أن يكون وفق منهجية الخلق، لأن الخلق ليس مجرد قوانين سببية عبثية، إنما الله خلق الوجود لغاية فهي سببيات وظيفية غائية، الكون كله يسير نحو غاية ينكرها الغرب ونقرها نحن مصداقا لقوله تعالى <<وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آتَاخُنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)>> (سورة الأنبياء).

- ربط الظواهر بسياقها المكاني والزمني، فعنصر من العناصر قد يكون فاعل في زمن ما وثقافة ما وغير فاعل في زمن وثقافة أخرى، فالأعراف تختلف وقد أقر القرآن بذلك <<خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ>> (الأعراف 199)

II / نسق التفسير في المدرسة الإسلامية:

يمكن أن نطرح نسق التفسير في مجموعة من العناصر المترابطة مشكلة قاعدة صياغة نموذج التفسير من وجهة نظر المدرسة الإسلامية، هذه النظرة المنثورة بين

(1) مصطفى حلمي، مرجع سابق، ص 180.183

رصيد المعرفة الحديثة والفتية للمدرسة الإسلامية صغناها بطريقتنا في العناصر التالية:

- تفسير الظواهر من خلال غاياتها ومآلها مما يجعل الظاهرة كما يقول طه عبد الرحمن ليست حدث علمي أصم بل آية من آيات الله ، والقرآن مليء بهذه الظواهر الآيات >> وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مَّتْرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)<< (الأنعام)، فالمطر مثلا ظاهرة علمية تعود إلى تبخر الماء وتراكمه في السماء مشكلا السحب التي تتكثف ثم تتحول إلى قطرات ماء، في حين الآية هي الظاهرة متلبسة بالقيمة ، فالآيات تحمل الأبعاد الروحية الإيمانية في دلالاتها أي أنها الظاهرة منظور إليها من زاوية المعنى والغاية، والمعنى عبارة عن قيمة غائية، فنزول المطر يحمل عدة دلالات أو آيات كمعنى الحياة، البعث، الرحمة، النعمة...، وقد تمّ الفصل بين الظاهرة والقيمة الغائية في الفكر الغربي كما يقول طه عبد الرحمن بحجة أنهما متعارضتان، هذا الفصل بين الظاهرة والقيمة أدى إلى تجريد القيم من موضوعات تحملها وتعبر عنها، وفقدت الظواهر الكونية والإنسانية بعدها الروحي الإيماني⁽¹⁾، وتحولت إلى علوم مجردة مينة خالية من الدهشة.

- التفسير الغائي للفعل الإنساني أو الاجتماعي يتعلق بمعرفة بواعث السلوك، فالتفسير لدى مفكري المدرسة الإسلامية ليس سببي مطلق وإنما سببي غائي، وتقول علا مصطفى أنور أن التحليل الغائي لا يجعله مختلف عن التفسيرات في العلوم الطبيعية، فالنظرة إلى المآل أو كما تسميه هي المستقبل يؤثر في الفعل القائم على الباعث، لكن ليس بالضرورة أن يكون الباعث متعلق بالمستقبل وإنما قد يصبح رغم غائيته شرط مسبق للفعل⁽²⁾، الفعل التراحمي أو الإيثاري أو التكافلي كأفعال غائية مشروطة مسبقا بباعث رضا الله أو الحسنات أو الجنة ولا علاقة لها بمستقبل دنيوي، فتفسير الفعل أو الظواهر من زاوية الغايات أو الوظائف كما يحلو للبعض أن يسميها يتعلق بنظرة المسلم إلى الكون والطبيعة والإنسان ليس كموجودات لا غاية ولا هدف من وجودها فذلك تصور الفكر المادي >> وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

(1) طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2005، ص.ص19.18

(2) علا مصطفى أنور، التفسير في العلوم الاجتماعية دراسة في فلسفة العلوم، دط، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1988، ص81.80

وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ >> (الجاثية، 24)
التصور الإسلامي ينظر إليها كموجودات خلقت لغاية وتتحرك لغاية وتتطور لغاية
وليس عبثاً.

- تصنيف الظواهر والعلاقات وتحليلها ليس من منطلق النموذج المعرفي الغربي
وإنما من منطلق نموذج الخصوصية الحضارية والثقافية والعقائدية، مع عدم إلغاء
الإستفادة من التنظير الغربي، فهناك مكونات حضارية وثقافية وعقائدية للظواهر
الإنسانية.

- البحث عن الإطراد في الظاهرة المدروسة، أي متابعة تكرارها واستمرارها من
أجل القدرة على تعميمها على الظواهر المشابهة.

- عرض تفاصيل الظاهرة في سياقها التاريخي باستخدام المنهج المقارن، وسيقها
المكاني باستخدام الملاحظة والتجربة التي قد تتمثل في جمع المعطيات عن طريق
الإستبيان أو المقابلة أو غيرها.

- ربط تلك التفاصيل بالكليات التاريخية والاجتماعية والإنسانية وتصنيفها داخل
أنماط (1).

- لاكتشاف العلاقات الكامنة لابد أن تتضمن الأنماط الوقائع كما هي، عناصر من
الواقع كما يتصورها الفاعل، الرموز التي يدرك الفاعل الواقع من خلالها، المعاني
التي يسقطها الفاعل على الفعل (2).

- البحث عن البعد المعرفي الكامن خلف تلك الأنماط والمقصود به معرفة رؤية
الفاعل للكون والعالم من حوله.

- صياغة نموذج تفسيري قادر على تعميم النتائج على الظواهر المشابهة.

ملخص عن المدرسة الإسلامية

(1) عبد الوهاب المسيري، دفاع عن الإنسان مرجع سابق، ص 328

(2) نفس المرجع، ص 309

المدرسة الإسلامية في العلوم الاجتماعية حديثة عهد، بعد أن انقطعت لسنوات وقرون عن امتداداتها الفكرية في تراكمية المعرفة الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي باستثناء الطفرة الخلدونية، هي مدرسة كما رأينا في الشق الأول منها جاءت رافضة لوضع الإستضعاف الذي تعيشه الأمة المسلمة، ووضع الإستكبار والإستعمار الذي يمارسه النموذج المعرفي الغربي على العالم كله، رافضة للهيمنة والخضوع معاً، ولم تقدم المعرفة الغربية السعادة للبشر كما وعدت ولم تجعلهم يتصالحون مع أنفسهم ولا مع الكون، لم ينته الفقر ولم تتوقف الحروب الباردة والساخنة، ولإن اختفى الرق فلقد ظهر اغتراب الإنسان عن إنسانيته، ولإن انتشر الطب فلقد تنوعت الأمراض وتعقدت، ولإن تطور العلم فلقد بردت الرغبة والدهشة معاً، ولإن قدمت لنا التقنية مزيداً من أوقات الفراغ فلقد زادت من كآبة البشرية...

العالم يحتاج إلى روح والمدرسة الإسلامية تعتقد أنها تلك الروح النيرة التي تحمل نمونجا يعيد تفسير الكون والإنسان والمجتمع من منطلق نموذج معرفي يجمع بين الروح والمادة، التجربة والبدئية، الحس والحدس، الدنيا والآخرة، الخالق والمخلوق... هذا التصور المعرفي الذي بسطناه في الشق الثاني يبنني عنه قواعد منهجية ونموذج تحليل ونسق تفسير عرضناهم للطلبة، ونحن نعلم أنها بداية طريق تحتاج إلى تراكم المعرفة النقدية المفضية للتطور.

مراجع المدرسة الإسلامية:

- 1- المعهد العالمي للفكر الإسلامي، إسلامية المعرفة "المبادئ العامة-خطة عمل- الإنجازات، ط2، دار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، 1992
- 2- أنور عبد الملك، الجدلية الاجتماعية، تر: سامية الجندي وعبد العظيم حماد، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 916، 2005
- 3- طه جابر العلواني، الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2006
- 4- طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الإختلاف الفكري، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2005
- 5- عبد الحميد أحمد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي-دار القارئ العربي، أمريكا-مصر، 1991
- 6- عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط7، دار نهضة مصر، الجيزة، الجزء الأول، 2014
- 7- عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993
- 8- عبد الوهاب المسيري، دفاع عن الإنسان دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة، ط2، دار الشروق، القاهرة، 2006
- 9- عبد الوهاب المسيري، العالم من منظور غربي، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، العدد 602، فبراير 2001
- 10- عبد الوهاب المسيري، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهد، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1996، الجزء الأول
- 11- عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجنور والثمر "سيرة غير ذاتية غير موضوعية"، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2000
- 12- عبد الوهاب المسيري، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، ط1، دار الشروق، القاهرة، 2002
- 13- عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ط2، دار الفكر، سوريا، 2007
- 14- علا مصطفى أنور، التفسير في العلوم الاجتماعية دراسة في فلسفة العلوم، دط، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1988
- 15- فتحي حسن ملكاوي وآخرون، إسماعيل الفاروقي وإسهاماته في الإصلاح الفكري الإسلامي المعاصر، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي-دار الفتح، الولايات المتحدة الأمريكية-الأردن، 2014

- 16- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دط، دار الفكر، سوريا، دت
- 17- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، ط2، دار الفكر، بيروت، 1971
- 18- مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن: القسم الأول الطفل، القسم الثاني الطالب، ط2، دار الفكر، سوريا، 1984
- 19- محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية، ط1، دار الهادي، بيروت، 2004
- 20- محمد أبو القاسم حاج حمد، ابستمولوجيا المعرفة الكونية الإسلامية المعرفة والمنهج، ط1، مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد-دار الهدى، بغداد-بيروت، 2004
- 21- محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، ط1، مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد-دار الهدى، بغداد-بيروت، 2003
- 22- محمد عمارة، إسلامية المعرفة ماذا تعني، ط1، شركة نهضة مصر، مصر، 2007
- 23- مركز الحضارة للدراسات السياسية، في تجديد العلوم الاجتماعية "بناء منظور معرفي وحضاري الفكرة والخبرة"، ط1، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، الجزء الثاني، 2016
- 24- مصطفى حلمي، مناهج البحث في العلوم الإنسانية بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2005

خاتمة

مقياس مدارس ومناهج 2 مهم جدا بما يحتويه من مادة تعرض وتبسط أهم المداخل المنهجية الكبرى التي عرفتھا العلوم الاجتماعية، وبما أنها مقدمة لطلبة السنة أولى علوم اجتماعية فهي ستشكل لهم تراكما معرفيا يساعدهم على تلقي بقية المقاربات التي وُلدت من رحم تلك المدارس، سواء موافقة وتطويرا أو نقدا وتغييرا، كما ستفتح ذهنهم أكثر على الكثير من مفاهيم حقل العلوم الاجتماعية فلا معرفة علمية إن لم تقم على نسق من المفاهيم، كما تشد مادة هذا المقياس فكرهم على قدرات عقلية ضرورية لمسارهم التعليمي كله كالتحليل والتركيب والنقد، إضافة إلى أن هناك مدارس أخرى ومقاربات قادمة في مسار الطلبة سواء اتجهوا نحو علم النفس أو علم الاجتماع تقوم على كفاءات سابقة هذه المدارس المعروضة في هذا المقياس واحدة من أهمها بل تعتبر أساس مختلف المقاربات في العلوم الاجتماعية.

إعتمدنا على مراجع متنوعة في كل مدرسة وعدنا إلى المصادر الأصلية لأصحابها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا حتى نكون قدوة للطلبة من جهة، ومن جهة أخرى نرغب أن يعود الطلبة إلى المراجع فيتعلموا مَنّا طريقة قراءتها واستخلاص أفكارها وتحليلها وتركيبها، ونحن متأكدون من وجود عناصر طلابية من هذا النوع، فالحمد لله أبناءنا الطلبة يعودون إلينا باستمرار طالبين التوجيه والمرافقة، بل البعض منهم يبحث عن التعمق في مسائل المقاييس المدرّسة، ويتدخل بأسئلة تثلج الصدر وإضافات تسعد القلب، ولذا اجتهدنا أن ترتفع المطبوعة نحو مطالب المتميزين وتنزل إلى قدرات العاديين.

المطبوعة قدّمت أهم الأسس التي تقوم عليها المدارس الخمس الموجودة في مقرر الوزارة من حيث المنهج أو التصورات أو التحليل أو التفسير، لكن لكل عمل إذا ماتم نقصان، تبقى أشياء أخرى لم نقلها ولم ننقلها، لو أردنا أن نفصل أكثر لاحتجنا إلى مساحة ورق أكثر ممّا جاء في هذه المطبوعة، لكن عزّاونّا أننا متأكدين أنّ ما عُرض في هذه المطبوعة كفيلا بأن يساعد الطلبة للحصول على كفاءات معرفية أساسية في بقية مشوارهم العلمي.

في الأخير نشير بوضوح أننا عرضنا وبسطنا كل مدرسة فكرية بعيدا عن أرائنا وانتقاداتنا كأستاذ باحث، على الرغم من اعتقادنا الذي يؤكد تاريخ العلم أنه لا توجد معرفة بشرية كاملة ومطلقة، فهي بين تطور وتغيّر يدفع مسيرتها نحو الأمام لا الخلف النقد ثم النقد ثم النقد، غير أننا أردنا أن نعرض الأفكار كما جاءت من مصادرها، ونترك للنقاش داخل الصف أن يقوم بدوره في إثراء ما يمكن إثراؤه فالتغذية الراجعة لا غنى عنها في تطوير المعرفة وطرائق التفكير.

إن الكمال في كل شيء مستحيل. فمن طبيعة الحياة أن تكون ناقصة لكي تسعى في سبيل سد هذا النقص، فلا تقف وسدّ نقائص هذه المطبوعة نقداً وتقويماً.

2019

2020